مصنع الأكاذيب

مجموعة قصصية

مصنع الأكاذيب

مجموعة قصصية



مراجعة لغوية: د. مريم عبد الجواد

تصميم الغلاف:د. عبد الله رجب

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 16271/ 2021

الترقيم الدولي: 9- 48-6798-977-978

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

مصنع الأكاذيب

أدهم إسماعيل ومجموعة أقلام متميزة

الأعمال الفائزة بمسابقة الفؤاد للقصة القصيرة

الفؤاد للنشر والتوزيع

شكر واجب

للكاتب الجميل ناصر رمضان لجهده في مسابقة الفؤاد للقصة القصيرة، لتخرج على أفضل نحو.

قامت أولى محاولات كتابة القصة القصيرة في القرن الرابع عشر في روما، داخل حجرة فسيحة من قصر الفاتيكان، وكانوا يطلقون عليها اسم "مصنع الأكاذيب"، اعتاد أن يتردد عليها نفر من سكرتيري البابا وأصدقائيهم للهو والتسلية وتبادل الأخبار؛ وفي مصنع الأكاذيب هذا كانت تُخترع قصص وحكايات عن نساء إيطاليا وعن البابا نفسه، كطرائف ونوادر، مما جعل الكثير من الأهالي يسعى لحضور تلك الأمسيات حتى لا يهزأ بهم أحد في غيابهم.

رشـاد رشـدي

فـن الـقـصـة الـقـصـيرة

الرمال لا تموت.... أدهم إسماعيل

سرت النسائم هذه المرة هادئة أعلى مسرح "أوليڤيا مارتينيز" القابع بميدان "خوسيه" منتصف ربيع أوائل العقد الثامن من القرن العشرين.

آلاف العقول البائسة تتهافت أمام البوابة الخلفية للقاعة، البعيدة كل البعد عن بوابتها الرئيسية المخصصة للحاكم وكبار الزوَّار.

كانت أمسية تعجُّ بالعروض الاستثنائية، الحزينة منها والمبهجة، قبل العرض الرئيسي الذي تعمَّدنا تأخيره عكس رغبة المدير.

انطفأت الأضواء مع دقات الثانية عشرة إلا من خيوط خضراء بدأت تتضافر وتكبر فوق خشبة المسرح، حتى ظهر مقدم الحفل ممسكًا بمكبِّر الصوت، وصاح قائلًا:

ـ والآن، مع العرض النهائي والأخير له كما وعد مسبقًا، رفيق الذئاب ومروِّض الشيطان الأشهر على الإطلاق. "جريزمااان العظييييييم".

تلفَّت الحضور حولهم استعدادًا للخدعة الأخيرة كما أوضحت، همس لي بيير عصر ذلك اليوم:

ـ العرض مذاع على التلفاز، ومخبرو الحاكم سيكونون على رأس كل طاولة وصف، اسمعني يا جريزمان، ما أنت مقدم عليه كفيل أن يرسل بروحك لأتون الجحيم على الفور.

أجبته مطمئنًا:

ـ سأنهي ما أتيت لأجله وأفرُّ قبل أن يلاحظوا، هل جهزت السيارة البديلة؟

ـ شيڤروليه حمراء موديل 59، تبدو هالكة لكنها بحالة جيدة، وستفي بالغرض، ستجدها في المَرْآب.

أغمضت عيني وقد أشعل مهندس الصوت أصواتَ النبض. سيسير العرض كما خططت له. أقف على المسرح ووشاحي يغطي كامل جسدي مع وجهي، وعلى رأسي القبعة.

أُظهر وجهي على مهل، ثم أقبض بيدي على الهواء فأمسك بشيء غير ظاهر أعتصر منه دمًا، ألقيه لأعلى فيسقط على هيئة قلب نابض حيٍّ، لن يصل إلى الأرض سيظل معلقًا بالقرب مني. ألتفت للجمهور، ثم أعود فألتفت للقلب وأشير بيديَّ وأقول بنبرة حادة:

ـ وهذا هو قلب الحاكم.

تتسع العيون هلعًا، لكن العرض لم ينتهِ بعد.

أمسح بيدي فوق القلب المعلق، فتتدفق منه كلمات وتسجيلات وعناوين صحف تكشف ما كنه هذا القلب نحو شعبه من مؤامرات خفية قد حاكها؛ ليحيق به الذل والوبال، وتعزز سلطانه في الفترة القادمة.

أتركها تسبح فوق العيون الزائغة وأصفق بيدي تصفيقة واحدة وأختفي، مع إشهار المخبرين لأسلحتهم وفوهاتها مصوبة نحو اللاشيء!

***

كانت مصابيح السيارة البالية تتحسس معالم الطريق بضوئها الخافت نحو الجنوب المؤدي للهضاب الرابضة أمام الغابات المطلة على شاطئ البحر.

اجتزت منطقة المروج الخضراء، وغادرت المدينة بسلام وقد ألقيت بالوشاح والقبعة في الطريق المعاكس، ولم يتبقَّ لي سوى العصا التي دسستُها بجيب السترة الداخلي.

بدأت ملامح الطريق تتغير وتزداد جفاء.

هضاب عدة تطوق الجانبين خلَّفتها قبل أن يهتز المقود مني ويثقل مكبح البنزين فجأة وأقف مرغمًا على يمين الطريق.

ليس هناك سوى الخواء والصمت. ستار الليل يكشف عن بصيص خافت من الضوء مع بزوغ الفجر.

مر الوقت ثقيلًا خانقًا حتى ظهر قرص الشمس من خلف هضبة مجاورة والضباب يغلفه، فبدا ثلجي اللون.

انتظرت مرور سيارة أو ما شابه دون طائل؛ فآثرت السير قليلًا.

لم أبتعد حتى وجدت مدقًا طويلًا موصِّلًا لما خلف الهضبة. عدت مسرعًا للسيارة وأوصدتها، ولم يكن هناك أمتعة لأحملها فاكتفيت بزجاجة ماء.

كان المدق أطول مما بدا عليه بادئ الأمر، ساعات مرت ولم أصل إلى نهايته بعدُ!

قرص الشمس يتوسط السماء متوهجًا، وزجاجة المياه التي كانت بحوزتي قد فرغت.

وصلت إلى أعلى الهضبة وكدت أسقط مرات، لكني قاومت. لاحت بناية فأخرى كشفت بعدها عن قرية كاملة. لم أحتمل من جراء الجفاف وسقطت على ظهري.

بدأ العالم يدور من حولي على مهل وصفحة السماء تدنو ببطء، كأني أسمع صوت أشخاص يتذمرون بالقرب مني.

أكان للشمس يومًا وجه فتاة يضفي عليك الظل!

***

ـ أفقْ، استيقظْ. ظالمة تكون الأيام لو كتبت رحيلك فور ظهورك إلينا، أنت لم تمتْ بعدُ.

انتفضت فوجدتني راقدًا على فراش يتوسط غرفة قديمة متربة قد جار الزمان على جدرانها فخلف وراءه شقوقًا وحفرًا.

قالت:

ـ سآتيك ببعض الماء.

وهمَّت بالخروج.

حاولت اللحاق بها، لكن إحساسي بتهشم عظامي منعني. دلف مع خروجها رجل عجوز وهتف لمَّا لاحظ حركتي:

– إلى أين؟ استرح أيها الغريب كي تستعيد قوتك.

– أين أنا؟

– أمامي الآن.

صمت برهة عقب إجابته، ثم عاد يتحدث:

– ثمة قاتل يجوب بلدتنا، أودى بيديه أرواح الكثيرين. تعلم، لو كنت ذلك القاتل لاسترحت!

وجمتُ وتلجم لساني، فأضاف لمَّا لاحظ ذلك:

- لا عليك، سأخبر ابنتي أن تعدَّ لنا الغداء لتنال نصيبك منه. لا تنم؛ لربما ظهر ثعبان أو ما شابه من تلك الشقوق.

نهض من مقعده وخرج.

عادت الفتاة وبيدها زجاجة ماء وكوب نحاسي صدئ. صبتِ المياه بالكوب وناولتني إياه وعلى وجهها ابتسامة دافئة. قالت بلهفة:

- سأرتب لك الغرفة والصالة بالخارج، اعتدنا العيش بالأعلى؛ لذلك أهملنا القبو. أعني منذ وفاة والدتي.

وبدأت بالترتيب وتابعت:

- هناك حمام بالجوار مياهه راكدة منذ زمن. أعلم أني ثرثارة بعض الشيء، سأتركك لتستريح وآتيك بالغداء.

وأنهت عملها على عجل ورحلت مسرعة.

حاولت النهوض مرة أخرى، وهذه المرة نجحت. سرت منهكًا وأخذت أستكشف المكان.

كان قبوًا مهترئًا لكنه مرتب بعض الشيء، هناك دَرَج موصل للأعلى، ومصباح واحد بالردهة، وحمام صغير بجوار الغرفة.

خلعت ملابسي واستحممت.

تناولت الغداء الذي وجدته لما خرجت، ولم أجد الفتاة. مر الوقت سريعًا حتى حل الليل. أشعلت المصباح الواهن وجلست أفكر في الخطوة القادمة.

حتمًا رجال الحاكم يبحثون عني بكل ضواحي المدينة الآن، ولعلهم فطنوا أني غادرت البلدة.

سيكون عرضي الأخير هو الوبال على رأسه ومَن عاونه لما ينتشر على محطات التلفاز حول العالم ويتم تسجيله للأيام القادمة. الشعب الذي عانى سوطه وسطوته، المرض والجهل والغلاء.

سيكف الناس عن بيع عقولهم للتسلية المصطنعة التي كنت مكلفًا بها أنا وأمثالي.

استغرقتُ في التفكير، وسرتْ نسائم باردة من النافذة أعلى الجدار، وظَهَرَ صوتٌ بعيد لارتطام موج.

لم أنتبه إليها وهي تهبط بفستانها الأزرق على الدَّرَج وبيدها قدح من الشاي قدمته إليَّ.

نهضت وتناولته منها بتأدُّب ورجوتُها الجلوس. لم تمانع وكأنها كانت تتجهز لذلك من قبل. سألتني برقة:

- من أنت؟

تعجبت لسؤالها فأجبتها مستنكرًا:

- ألا تملكون تلفازًا؟!

- لا أحد في قريتنا يملك واحدًا. وعدني أبي ذات مرة أن يبتاع جهازًا من المدينة، لكن ذلك لم يحدث واكتفينا بالمذياع، نحن نعرف منه كل أخبار الحرب.

لم أعِر انتباهي لآخر كلماتها، ولم أهتم بمعرفة نوع الحرب الذي تتحدث عنه.

دنوت منها بتؤدة ومددت يد المصافحة وقلت:

- أنا جريزمان.

ابتسمت وصافحتني بحرارة لم أعتدها في فتاة وقالت:

- ماتيلدا

سحبت يدها وارتخت للوراء وسألتني أن أشرب الشاي قبل أن يبرد. أمسكت بالفنجال ورشفت رشفة صغيرة. يبدو أن التعب أفقدني الإحساس بالطعم. رمقتني بنظرة راضية ومرت فترة غشاها السكون.

لم تجد مني سوى الصمت؛ لذا استأذنتني بالصعود وقالت أنه يمكنني إشعال المذياع القديم هناك وأشارت إليه؛ فهي تملك آخر بالأعلى.

ورحلت.

أدرت المفتاح أكثر من مرة ولم أسمع إلا وشًّا!

......

حل الصباح وشعرت أن جسدي استعاد عافيته من جديد.

كانت متلألئة هذه المرة ترتدي فستانًا ورديًّا قصيرًا.

قالت مبتهجة:

- يبدو أنك قضيت ليلة مرهقة، لعلك أفضل حالًا اليوم.

تقدمت منها وأسندت مرفقي على المذياع وقلت:

- وددت أن أشكرك على فنجال الشاي ليلة أمس، لكنك رحلتِ مسرعة.

ابتسمت وأجابت باهتة:

- أنا لم آتِ هنا ليلة أمس.

التفتُ للطاولة فوجدت الفنجال قد اختفى، ثم التفت إليها مرة أخرى فوجدتها تعبث بمفتاح المذياع وتستطرد:

- يبدو أنك ما زلت مرهقًا. أخبرني باسمك.

صمتُّ لحظات ثم أجبت:

- جريزمان، وأنتِ ماتيلدا.صحيح؟

اتسعت عيناها وقالت:

- أصبتَ، مَن أخبرك؟!

حاولت تغيير الموضوع فسألتها:

- ماذا تفعلين؟

- لا شيء، ها هو.

وصدر صوت أغنية قديمة خافت، فتركت المذياع وبانتشاءة نصر قالت:

- أدعوك لتناول الإفطار معي بالأعلى إذا سمحت.

- أتحبين الأغاني القديمة؟

أجابت ساهمة:

- اعتدت أن أرى الجمال في كل شيء.

- علَّك تنظرين إلى المرآة طويلًا.

تسمرت عيناها نحوي لوهلة، ثم كشفت عن ثغرها والتفت نحو الدرج، وبحياءٍ قالت:

- وافِني لأعلى.

......

جلست على طاولة الطعام ومن أمامي العجوز صاحب البيت.

ماتيلدا تعد الفطور بالداخل.

حدثني العجوز بصوت خفيض:

- ابنتي تعتقد بوجود شاب معنا بهذا المنزل أتى ظهيرة أمس، مسكينة تلك الفتاة تركتها والدتها وهي في الخامسة عشرة ولم يتقدم أحد لخطبتها منذ ذلك الحين.

كانت كلماته غريبة، مع ذلك أكمل:

- تعرف، بدأت أصدق بك.

هلّت ماتيلدا ووضعت صحن جبن وشرائح خيار وخبزًا

جلست على الجانب الأيمن من الطاولة وطلبت مني البدء، ثم حدثتني بلهجة متوترة:

- كان أبي يظن أن عمليات الاختفاء والقتل التي تحدث بالبلدة منفذها قاتل متخفٍّ، وجميع أهل القرية يوافقونه الرأي.

ثم مالت عليَّ وهمست:

- لكني أومن أنها روح شريرة هائمة ولم أخبر والدي بذلك.

قالتها وعادت تستريح لتبدأ طعامها.

نظرتُ إلى والدها الذي بدا عليه أنه لم يسمع حديثها، فداعبتها قائلًا:

- لا تخافي، لن أخبره.

ردت شاردة:

- وكيف تخبره وقد مات من شهر.

دوى صوت رصاصة اخترقت النافذة وأصابت رأس العجوز من الخلف، فانكب بوجهه على الطاولة.

تناثرت الدماء فوق صحن الطعام، وظهرت بقعة دماء لوهلة ثم تلاشت كالوميض.

عدت لماتيلدا فوجدتها محملقة في الأفق تتلاعب يدها بشريحة خبز غير عابئة بالأمر، وكأنها ذكرى حزينة مرت من أمامها واختفى العجوز!

انتفضت من مقعدي وقلت:

- سأرحل الآن.

أسقطت الشريحة منها وسألت متوجسة:

- للأبد؟

تعجبت لسؤالها، فأجبت مُطمئِنًا:

- بل لآخر النهار.

نهضت وأوصلتني نحو الباب وفتحته لي.

غاصت في عينيّ وهي تقول:

- سأنتظرك.

ربَّت على كتفها وأغلقت الباب ورائي، وبدأت أجوب شوارع القرية على مهل.

......

كانت الشوارع واسعة، البنايات مرصوصة لكن شبه مهشمة،

سحابة من الدخان تطفو بالأعلى جعلت السماء غائمة، والكل يسير بوجوه خائفة، حتى ينظر أحدهم إليَّ فيبتسم، ثم يعود لوجومه مرةً ثانية.

على اليمين حانوت مفتوح، أمامه يجلس رجل مُسنٌّ. وجدت كرسيًّا شاغرًا بجانبه، فاتجهت نحوه وجلست عليه.

قال دون أن يلتفت:

- متى حلت تلك اللعنة على بلدتنا فأضحت الأشجار لونها رمادي.

كيف لم ألحظ ذلك؟!

أدار رأسه تجاهي وقال:

- أنا أصدق بك.

حاولت الرد لكن يد أحدهم تخبط على ظهري وقال لَمَّا التفتُّ إليه:

ـ أنت تجلس أمام حانوت باتريك إذن. مات ذلك العجوز منذ يومين.

فغرتُ فاهي وعدتُ أنظر للعجوز، فوجدته معلقًا على غصن شجرة على مقربة ورأسه متدلٍّ من حبل.

أضاف الكهل:

ـ ليتك ظهرت له قبل موته.

ثم تابع مرتبكًا:

- أنا لا أؤمن بك؛ أعلم أنك خيال ولا بأس. اعتدت العيش في الخيال طيلة عمري رغم نصائح البعض لي بالكفِّ عن هذا، لكن لو خبت تلك العوالم بداخلي فلن أقدر -في الحقيقة- على إشعال ولو عود ثقاب.

قالها وبدأت ملابسه تشتعل من أسفل، فصار ينظر للسماء ويصرخ:

- متى ستأتي أيها الوغد؟

تعالت النيران وتلبست سائر أنحاء جسده الذي بدأ بالذوبان، والتفتُّت ليتطاير رُفَاتُه بعد ذلك كالهشيم.

فزعتُ وصرتُ أركض هائمًا، وكلما مررتُ من أمام أحدهم قال:

- أحقًّا أتيتَ؟

فكرت أن أعود لماتيلدا وأخبرها علَّها تجد تفسيرًا.

أخذت أطرق على الباب بعنف، ولما تأخرتْ خشيت أن تكون مثلهم، لكنها فتحت في الأخير وقالت باسمة:

- عدتَ باكرًا!

ما إن رأيتها حتى احتضنتها بقوة، وتهادى الهواء إلى صدري، فسألتها برفق:

- أنتِ هنا؟

- وأين عساي أكون؟

حمدت الله وسحبتها من يدها للداخل.

كانت براءتها تمنعني من إخبارها بما صادفتُه اليوم وأمس؛ لعلي أهذي.

ناولتني عصًا قالت أنها وجدتها بجانب فراشي صباح اليوم، ثم سألتني عن طبيعة عملي.

أمسكت العصا وشرعت أرسم على الهواء حروفًا متباعدة، ولما انتهيت رتبت تلك الحروف ودفعتها إليها، فقرأتْها على مهل:

- لقد هِمتُ بك حبًّا.

قامت ودون تفكير ألقت بنفسها بين ذراعيَّ، ثم علتْ برأسها فعانقتها عيناي وهي تقول:

- أعلم أنك لست حقيقيًّا.

- لماذا تقولين ذل...؟

- تعالَ معي؛ إنه اليوم الأخير.

دوى صوت انفجارات بالخارج، وباتت طلقات الرصاص تخترق كل ركن. أمسكتْ بيدي غير عابئة وفتحت الباب ومضت تركض دون عناء.

البنايات من حولي تنهار واحدة تلو الأخرى والنار تطوق كل شيء. الناس ينظرون إليَّ ويبتسمون، ورصاص غاشم يقتنصهم. حتى الرضيع مقطوع اليد كفَّ عن البكاء لما رآني. قذائف الطائرات تنهال فوق رءوسنا، أتحاشاها مع ماتيلدا وقدمانا ترفس أوراق الشجر الرمادية قبل وصولنا للشاطئ.

تترك يدي وتخلع حذاءها وتتمايل فوق رماله الناعمة وظهرها ينزف دمًا. تمسك بصخر حاد وتركن إلى شجرة وتبدأ بكتابة شيء لم أتبيَّنه. الكلمات ترتسم قبل أن تحفرها وغبار الحرائق يخفي معالمها.

تترك الصخرة مجهدة ثم تعود وتنظر إلي، وتحاول النهوض فتفشل، وباستسلام تهوي وتفترش رمال الشاطئ. الموج يتلاطم في هياج ولونه أصبح كلون الدم. أجثو على ركبتي، وأسند رأسها بكفي، وأسألها بدمعٍ منهمر:

- كيف تموتين والبحر باقٍ والأشجار قائمة؟

- سيزول البحر يومًا، ويسكت حفيف الأشجار، ويفنى كل شيء، ولن يبقى سوى رُفاتي مخلوطًا برمال الشاطئ.

- لا تقولي هذا.

- لطالما عرفتُ أنك ستأتي وتنتشلنا مما ألحقته بنا الحرب، ستصادف رسالتي ذات يوم وتقرؤها. عِدْني يا جريزمان أنك ستنفِّذها ولو مرَّت على كتابتها عقود.

- أعدك.

ابتسمتْ وأرْخت جفنَيْها، وتركت يديها تنساب على الرمال وقد أعلن صدرها آخر دقة قلب.

ضممتُها إليَّ وعيناي ترمق لون البحر وتنزف حتى تناثرت من بين يداي وهامت مع الريح، وطوى عناقي فستانها الوردي.

أحمل حفنة من الرمال مكانها وأضعها في جيبي، ثم أهرع نحو ساق الشجرة، أنفض الغبار عن نقشها وأقرأ الرسالة. أعود أدراجي وحال كل شيء من حولي رماد.

في زمنٍ ما.

كنت حلمًا لأهل هذه القرية صنعتْه مخيلتُهم البائسة لما قاسوه من ظلم.

كتبت ماتيلدا في رسالتها:

"طهر بيديك ما أدمته آثام أسلافنا، ففي ثناياك كل الكون تحمله.أنت الوطن".

ـ سأفي بالوعد.

تمت.

لتكن ابني... سماح قمصان

نائمة على فراش صغير، جسد منهك تتسرب منه قطرات الحياة في بطء، خراطيم عديدة تخرج من أكياس مليئة بسوائل شفافة تمدها بأنفاس الحياة. مَن ينظر إلى وجهها الشاحب وعينيها المغمضتين يتوقع أنها لا تشعر بما حولها، بينما هي تشعر بهم، تسمعهم يقولون ما هي إلا أيام أو ساعات.

لم يكن كل هذا يعنيها في شيء، فهي وإن كانت راقدة بجسدها وسطهم إنما كانت هناك بعقلها وروحها، هناك في الماضي البعيد، يسبح عقلها في بحر من الذكريات،

ذكريات أربعين عامًا مضت.

صوت الطبيب الجاف ما زال يدوي في أذنيها:

ـ آسف سيدتي، نتيجة الفحوصات تقول ذلك بوضوح، لن تصيري أمًّا، قدَّر الله وما شاء فعل.

اتسعت عين (أمل) بعلامات الصدمة، لم تستطع أن تخفي دموعها وهي تستمع لكلمات ذلك الطبيب. لقد كان هو أملها الأخير بعد عده سنوات من دون إنجاب.نظرت إلى زوجها (حازم) تطلب منه العون، تستمد منه القوة كما تفعل دائمًا، التفَّتْ يده حول كتفها حنونًا كعادته، في طريق عودتهما للبيت أخبرته والدموع تملأ عينيها أنها لا تمانع زواجه بأخرى من أجل الإنجاب.لم يدَعها تكمل، وضع يده على شفتيها مجبرًا إيَّاها على الصمت قائلًا لها:

ـ لا أريد أن أسمع هذا الكلام مرة أخرى، وهذا ردي النهائي على أفكارك المجنونة تلك.لن أعيد عليك حديثي بأني أحبك ولا أتخيل حياتي من دونك قدَّر الله لي زوجة فكنتِ أنتِ، الآنَ قدَّر الله لي ألَّا أكون أبًا، له كل الحمد والشكر، لا يريد لي أطفالًا وأعطاني أجمل زوجة في الوجود، فلماذا الطمع؟

هل أخبرك عما يفعله الأطفال من عقوق في هذا الزمن؟

هل أخبرك عن نساء كئيبات أسمع قصصهن من أزواجهن في العمل؟

دائمًا ما أتوجه إلى الله بالشكر أن منع عني تلك المصائب.

اتركي كل هذا جانبًا وأخبريني هل عليَّ أن أذكِّرك دائمًا كيف استقبلني والدك لا أملك من حطام الدنيا شيئًا؛ ليعطيني ملكة جمال فتيات المنطقة، فقط لأنه أحبني؟

هل تريدين مني أن أتزوج بأخرى سأناديها دائمًا باسمك! فتتكوَّن لدي مشكلات من نوع آخر؟

ألم تخبرك سنوات زواجنا أنك صنعتِ لي عملًا سحريًّا بالمودة والرحمة ودفنتِه في أعمق أعماق الأرض، فلم أجد مهربًا من حبك إلا إلى عينيك؟

أتريدين أن أتخلى عن كل هذا من أجل طفل أو طفلة لا أعلم مستقبلًا كيف سيكون؟

أنت حبيبتي وزوجتي، وابنتي أيضًا! ألم تلاحظي عند غضبك كيف أكون صبورًا ضاحكًا ألاعب الطفلة معقودة الحاجبين؟

سأكتفي بكِ ابنة وزوجة. ليكن ما يكون من قضاء الله.

انطلق صفير عالٍ من أحد الأجهزة المنتشرة حولها، هرع الأطباء ليلتفوا حولها

ولم تكترث لما تسمعه أو لما يفعلونه.
وانطلقت على موجة أخرى من أمواج ذكرياتها
غاضبة تصرخ في وجه حازم، إنه يعمل ليل نهار ولا يلقي لها بالًا. خاصمته وانقطعت عن الحديث معه. تذكرت ماذا فعل، لقد طيّب خاطرها بثمرة طازجة من الذره المشوية، كان يعلم عشقها للذرة.كم كان لطيفًا!
كم من مرة استقبلته وهو عائد من عمله مرهقًا بوجه بشوش مرحب! كم من مرة خاطبته بكلمة يا ابني!
كم من مرة استمتعت بثقافته ونكاته. لقد كان واسع الاطلاع خفيف الظل بشكل لا يصدَّق.
- النبض ينخفض. أعتقد أنها ساعة أو أقل.
إنها ذكرى زواجهما، عندما أتى لها بهديتين! عندما سألته: لمن الهدية الثانية؟ همس لها أنها لابنته، فاليوم هو عيد ميلادها، وأنا أحبكما أنتما الاثنتين. كادت أن تطير من الفرح يومها.
تذكرت كيف كانا يجيبانِ من يسألهما عن الإنجاب بأن لديهما فعلًا ابنًا وابنة، ويتركون الجميع خلفهما في حيرة من أمرهم. عاشا سنين طويلة، كانت هناك أيام صعبة وأيام جميلة، ولكنهما استطاعا أن يعبرا جميع أزماتهم بسبب حبهما الجارف الذي استطاع أن يحطم كل القيود، ويفتح الأبواب للحياة والأمل.
- لا إله إلا الله. لقد دخلت في غيبوبة النهاية. ما هي إلا لحظات.
حبيب عمرها على فراش الموت بعد أن عانى من مرض عُضال. يومها قالت له:

ـ لا تتركني.

نظر لها بعين ذابلة قائلًا:

ـ سأنتظرك.

ثم أسلم الروح بين يديها، ويوم وفاته كأنها خسرت العالم كله، لقد خسرت حبيبها وزوجها وابنها مرة واحدة.

اليوم هي ليست حزينة إنها في طريقها إليه.هو فقط سبقها من شهور قليلة.

أشباح بمعاطف بيضاء يتحركون في قلق، أشباح أخرى تبكي، أما هي تراه هو عند طرف الفراش جميلًا وسيمًا كما كان دائمًا، ضاحكًا مبتسمًا مستبشرًا، يمد إليها يده، تحاول جاهدة أن تصل إليه. يمنعها هؤلاء الأشباح، تريد أن تصرخ فيهم: دعوني أذهب إليه، أريده هو لا أنتم.

إنه يقترب. يهمس في أذنها: أوحشتني كثيرًا.

كالعادة ينعقد لسانها و تفيض عيناها بالكلمات.

علمها حازم سر السعادة،

فنهلت من نهر الرضا حتى ارتوت.

عاشت راضية، والآن تموت راضية.

عاشت بحازم، والآن تموت في طريقها إلى حازم.

لم تكن ترغب في شيء من هذه الدنيا إلا كلمة توصي بها المحيطين.

ليس للسعادة من أسرار سوى الرضا.

خذ بيدي يا حازم. افعل كما كنت تفعل دائمًا.

الآن حازم يمسك بيديها، يسحبها إلى عالمه الأجمل.

وانطلق صفير جهاز قياس ضربات القلب بأزيز متصل ليسطِّر كلمات النهاية.

القضية التي قلبت حياتي رأسًا على عقب كانت يوم احتفالي مع زوجتي العزيزة بعيد زواجنا الثامن، عندما اتصل "صلاح"، أمين الشرطة بالقسم الذي أعمل بداخله ضابط مباحث، وأخبرني عن جريمة قتل بمستشفى المعمورة للأمراض النفسية، وكانت هذه اللحظة صعبة. كيف يمكن أن أذهب إلى العمل في هذا الوقت وقد وعدتها بأن أتفرغ اليوم لها، ولكن لا أستطيع أن أنفّذ وعدي وكأن بداية وجع الرأس ستكون زوجتي، فهي لن تسمح لي بالذهاب من دون إحداث مشكلات تكفي مائة عام من النكد، ولكن بعد كثير من المفاوضات والتنازلات يمكنني الذهاب بسلام، لكن لأول مرة تحدث. كان من الأفضل أن أستمع لها في عدم الذهاب إلى هذا المكان الملعون.

عندما وصلت إلى المستشفى شعرت بضيق لا أعلم سببه؛ أهو نتيجة كآبة المكان أم أنه انطفاء الروح الذي يسبق الكوارث. لا يهم هذا الآن، ويجب أن أركز في هذه القضية؛ فقد رأيت طبيبًا من المعمل الجنائي، فاقتربت منه وسألته عن ملاحظاته.

فقال بصوت واجف: "إنها المرة الأولى التي أرى قتلًا ثم تمثيلًا بالجثة بهذه الطريقة كأنها طقوس لعبادة الشيطان، سلخ الوجه وندوب على الصدر واليد بأشكال غريبة وطلاسم مخيفة".

ـ متى يمكننا الاطلاع على التقرير النهائي للتشريح وسبب الوفاة؟

ـ في خلال أسبوع.

ـ لا، أنا أحتاج التقرير في أسرع وقت، واليوم قبل الغد.

ـ سوف أحاول قدر المستطاع.

ـ هل لديك ملاحظات أخرى على الحادث؟

ـ المقتول كان في حالة استسلام للأمر، ولا يوجد آثار مقاومة، وكان في وضعية اللوتس مثل رهبان بوذا الذين يفعلونها للتأمل قبل وفاتهم.

ـ ولماذا يفعل هذا؟! هل تعتقد بأن هذه جريمة قتل أم انتحار؟

هزَّ رأسه كدليل على عدم معرفته الإجابة، فقلت له لإنهاء الحديث:

ـ شكرًا يا دكتور، وسوف أتواصل معك غدًا لأتابع آخر المستجدات لديك.

ثم تركته وذهبت إلى مكان وجود مسئول الأمن والممرض والطبيب المعالج، فتكلمت معهم بهدوء:

ـ من الذي اكتشف الجريمة؟

ـ كلنا كنا موجودين لحظة اكتشاف الجريمة.

وأردف مسئول الأمن قائلًا:

ـ الغرفة لها ثلاثة أقفال، ومفاتيح هذه الأقفال مع ثلاثة: أنا والدكتور والممرض، ولا يمكن فتح الغرفة إلا بوجود الثلاثة.

نظرت إلى الطبيب الذي كان يتصبب عرقًا ويظهر عليه التوتر، فوضعت كفي على كتفه واقتربت منه وقلت له:

– ما الذي كان يعانيه المقتول؟

ـ كان يعاني الهلوسة والتوهم وبداية ظهور انفصام في الشخصية.

ـ هلوسة وتوهم!

ـ في البداية كان دائمًا متخوفًا ويشعر بأن كائنًا غير بشري يراقبه ويريد أن يأخذ روحه.

ـ يتوهم بأن هذا الكائن من الجن مثلًا.

ـ لا، بل الإسكندر الأكبر.

ـ ما هذا الجنون؟ ولكن ما سبب شعوره هذا؟

ـ كان يقول إن الإسكندر يريد العودة للحياة مرة أخرى ولكن كإله، ويحتاج جسمه لأجل العودة.

ـ الإسكندر كان قائدًا عسكريًّا وليس ساحرًا، وهو في النهاية بشر.

ـ نعم، ولكن سامح أخبرني أنه كان إنسانًا عاديًّا، وبعد وصوله إلى مصر وذهابه إلى سيوة، هنالك قابل كهنة آمون وأعلنوه ابن آمون.

ـ مجنون مثقف تريد أن تضيف حاجة.

ـ سامح كان يكتب مذكرات، ولكن الغريب أنه كاتب يوم وفاته في الوقت الذي مات فيه الإسكندر الأكبر لأجل رجوعه واستكمال مجده.

ـ أنت تريد أن تقول بأن سامح انتحر!

– لا أستطيع التأكيد على هذا، ولكن تصرفاته كانت غريبة خصوصًا آخر أيامه؛ لأن شخصيته الأخرى هي التي سيطرت عليه، وأصبح يتصرف كأنه الإسكندر الأكبر، ولكن العجيب أن القطط زادت زيادةً كبيرةً قبل وفاته بأسبوع.

ـ أين هذه المذكرات؟

ـ موجودة يا فندم.

ذهبت معه وأخذا المذكرات، ثم جلست مع والد سامح وقلت:

ـ السلام عليكم يا والدي، البقاء لله.

ـ البقاء لله وحده يا بني.

ـ أنا أعلم بأن الوقت غير مناسب، ولكن أريد أن أتحدث معك لنصل إلى حقيقة ما حدث.

ـ تفضل يا بني، تكلم.

ـ متى دخل ابن حضرتك المستشفى؟

ـ من حوالي سنتين.

ـ وقبل دخوله المستشفى، هل كان يوجد أحد يضايق أو يقوم بتهديد سامح؟

ـ لا، البداية بسبب اليوم المشئوم الذي زار فيه عمود السواري.

ـ عمود السواري!

أم سامح نظرت إلى أبيه بغضب، فرجع وقال:

ـ قضاء الله نافذ يا بني لا محالة.

ـ وما قصة عمود السواري؟

– لا شيء. أستأذنك ممكن نأجل التحقيق لبعد الدفن؛ فأعصابي لا تتحمل.

ـ وهو كذلك يا حاج، لن أضغط عليك، ولكن المرة القادمة ستكون في محضر رسمي.

تركتهم وأثّرتْ هذه الكلمات في نفسي، ولكني متأكد أنهم يعلمون شيئًا ولا يريدون الإفصاح عنه. ذهبت لمراجعة الكاميرات الموجودة في المستشفى، وكان من الغريب أنه لم يدخل أو يخرج أحد سوى بعض القطط التي تتحرك ذهابًا

وإيابًا، ولكن كان هنالك سبعُ ثوانٍ انقطع فيها بثُّ الكاميرا مع وجود صوت حشرجة، ولكن هذا الوقت غير كافٍ لتنفيذ جريمة مثل هذه، كما أن فكرة الانتحار صعبة للغاية. كيف لبشر أن يتحمَّل سلخ جلده؟ الأمر محير فعلًا، ولكن بداية الخيط قد تكون في كلام أسرة سامح عن عمود السواري. ذهبت إلى مكتبي وكنت أحاول أن أصل إلى حل، ولكن دون جدوى، الوقت يمر بسرعة، والآن الساعة تخطت الثالثة فجرًا. قررت أن أذهب إلى البيت، ولكن عندما رأيت المذكرات دفعني الفضول لأن أقرأ ما بداخلها.

الحياة تسير ببطء شديد نحو المستقبل، ولكن ما يدفعنا إلى الأمام هو الأمل، والقدر يتدخل في النهاية ليقرر مصيرك، سواء كان مستقبلًا مشرقًا أو تعيسًا.
الحياة كان تسير باهتة مثل ملايين الناس، حياة مليئة بالظلم والقهر والطموح الزائف والغش والخداع، ولكن ذلك اليوم غير حياتي عندما ذهبت في رحلة إلى عمود السواري.
الاهتمام بالآثار لعنة، فهي الرابط بين الماضي والحاضر والشاهد عليهم، كما قد تتنبأ بالمستقبل إذا توفرت لديك المعرفة.
والبداية كانت في نظرات القط الموجود عند مدخل معبد سرابيوم. عندها شعرت برجفة بجسمي، بعدها بدأ "أحمد"، وهو مرشد الرحلة، يتكلم قائلًا:
ـ عمود السواري من الأماكن المميزة في الإسكندرية، أقيم تخليدًا للإمبراطور دقلديانوس وهو أعلى نصب تذكاري في العالم، وهنا بجواره معبد سرابيوم، وهو ممتلئ بالدهاليز، وقد اختلف المؤرخون في تحديد العهد الذي تم فيه إنشاء

المعبد؛ هل في عهد بطليموس الثالث أم الإسكندر الأكبر، ولكن المؤكد أن المعبد سبب بنائه هو الاستشفاء. كما يوجد بعض الرموز التي تشير إلى الآلهة المصرية القديمة، مثل إيزيس وأنوبيس.

أنا لم أُعِر كلام أحمد اهتمامًا؛ فقد كان كل اهتمامي مع هذا القط المريب، فاقترب أحمد مني وقال: أتعلم أن هذا القط يعود إلى السلالة التي عاصرت قدماء المصريين حاميةً لغرف الفرعون ضد الثعابين والعقارب والشرور.

دخلنا المعبد وبدأنا السير في الممرات، ولكني وجدت القط مرة أخرى مرسومًا عليه نقوش مضيئة أقرب للطلاسم، وعندما اقتربت منه اختفى. التوتر والخوف امتلكا مشاعري، كما أن أصدقائي رحلوا، ولكن ما زلتُ أسمع أصواتهم، فحاولت اللحاق بهم، ولكن من دون فائدة، فأصبحت تائهًا في دهاليز لا أعلم نهايتها، ولكن الخوف الحقيقي بدأ عندما رأيت نفس القط يقترب مني ويتكلم بلغة غير مفهومة. ضاقت الدنيا عليَّ بما رَحُبتْ وأصابني الإغماء، ولم أدرِ بشيء سوى أني موجود على سريري، وبعد ذلك عرفت أنهم وجدوني في أحد المداخل السرية الموجودة بالعطارين.

الحياة أصبحت مخيفة جدًّا، وخصوصًا عندما زارني لأول مرة وكانت ملامحه غير واضحة، وصوته رغم أنه غير مفهوم يوجد به رهبة، ولكن لاحقًا شعرت بأن أرواحنا تمتزج بعضها مع بعض كأن جسدي إناء للروحين.

الأيام تمر وأنا أفقد السيطرة على جسدي وهو يتحكم أكثر، القطط تجتمع أمام بيتي، وأصبحت تنتشر في الشارع بكثرة، الأمور تخرج عن السيطرة. لم أعرف

ما الذي حصل مع أهلي حتى فقدوا الأمل ورموني بالمستشفى، وتعقدت الأمور أكثر عندما وضعوني بهذه الغرفة اللعينة، ولكن ظهرت العلامة.

كلام كثير ممسوح صفحة وراء الأخرى، كل الكلمات ممسوحة حتى وصلت إلى الصفحة الأخيرة، وكان يوجد بها جملة واحدة: "احذر فنحن حولك". أغلقت المذكرات وسمعت صوت حركة، وظهر من العدم قط شكله غريب، ثم عاد للعدم مرة أخرى.

فتحركت من المكتب وانطلقت بسيارتي نحو المنزل، وفي أثناء السير ظهرت سيارة وصدمتني بقوة فانقلبت العربة.

ظلام صوت صفير قوي، الدماء تتدفق بقوة من جسدي، وعندما بدأت أستعيد قوتي وجدت نفسي مربوطًا في الكرسي وأحدهم يقترب مني وهو يحمل سيفًا يلمع في هذا الظلام. لم أرَ ملامحه، ولكني أسمع صوت خطواته وأنفاسه وهو يقترب من أذني ويقول بصوت يشبه الفحيح:

ـ كمّل تسجيل لحكايتك حتى تبقى ذكرى من ضمن ذكريات كثيرة، وهذه نهاية من يسعى إلى المعرفة.

الآن رأيت ملامحه. كيف هذا؟ ما زال حيًّا! أيعقل هذا؟!

صوت السيف يخترق الهواء ويقترب من رأسي.

إنها نهايتي، ولكن بداية عهد الإسكندر الأكبر.

تمت.

- متى ستتخلين عن مثاليتك الزائدة تلك؟ ألا تتعلمين أبدًا؟

صديقة طفولتي وعمري كله، وحديث لا تسأم من تكراره ولا أضيق بسماعه؛ ليقيني بمنبعه قلبها الأبيض الذي ينضح محبة وحرصًا صادقين لا يُقدَّران بثمن.

- وما الذي أخذتِه من تمسكك الزائد بالقيم والنبل في التعامل؟ يتهمونك بادعاء البراءة، والتعالي عليهم باسم الأخلاق، ويمطرونك بطعنات الغدر بلا حياء أو ندم.

أتدثَّر بصمتي متشبثة به، تدور مقلتاي في المكان فلا أرى سوى أفكاري.

- متى ستدركين أن الملائكة لا تعيش على الأرض؟

نجلس متجاورتين كعادتنا دائمًا، هي بعفويتها وطبعها الحامي وأنا بهدوئي الزائد وسط صخب حفل يضج ببهجة زائفة أشعر بنظرات لزجة تزحف على جسدي، أباغت صاحبها بنظرات جامدة كسطح مرآة بارد انعكست عليه بشاعة نفسه، فردّ بصره منزعجًا. كان ذلك الحقير زوج صديقتي جالسًا بين أصدقائه على طاولة قريبة.

خفضت بصري لبرهة ثم التفتُّ لصديقتي. كانت غافلة عنه مسترسلة في حديثها إليَّ حينما تسلَّط بصرها فجأة على زوجي يراقص زوجة شريكه في العمل، قطعت كلامها زافرة بغيظ ثم تابعت بعصبية:

- وانظري إلى زوجك وبجاحته، ألا تكفيه فضيحته مع الراقصة؟

توترت قليلًا وشحب وجهي، إلا أنني لم أبدِ انفعالًا ظاهرًا. أُدرك أن الجميع يعلم بعثور الشرطة على أفلام قذرة لهما معًا في أثناء لقاءاتهما في شقتها، وذلك خلال التحقيق في مقتلها، حيث وجدوها في فراشها وقد فارقت الحياة نتيجة استنشاقها لغاز سام، وقد وجَّهوا لزوجي أصابع الاتهام، إلا أنه تمت تبرئته لعدم وجود أدلة دامغة تُدينه.

انتبهت من شرودي على صوت صديقتي تزجرني:

- ما هذا البرود؟ لولا معرفتي بكِ لاتهمتك بالغباء. لماذا لا تثورين وتضعين حدًّا لتلك الوضاعة؟!

ألقيت نظرة على زوجي متخشبًا بين يدي زوجة شريكه اللعوب تستثير بفُجر فحولته بشتى الطرق دون جدوى.

خالجتني الشفقة لأجله؛ فلا أحد يعلم سواي بالمرض الذي أصابه بعد حادثة الراقصة. أفقدتُه القدرة على الانتصاب، لكنني أنوي مكاشفتها بهذه الحقيقة، ففي النهاية هي صندوق أسراري.

عدتُ ببصري لها مبتسمة ابتسامة ودودة، لكنها رأتها بلهاء، فأشاحت بوجهها عني بضيق. عندما لمحتُ زوجها يتسلل خلف إحدى الغانيات مغادرًا الحفل، فار دمي غضبًا، فإذ بي أنهض من فوري خلفهما حتى لحقت بهما عند سيارته يتأهبان لاستقلالها، انقضضت عليهما كطائر جارح:

- أتخون صديقتي يا حقير؟

فزعت الغانية هاربة، و تسمر الخائن في مكانه مذعورًا يتوسل إليَّ بصوت مرتعش:

- اهدئي، يا أميرة، أرجوكِ؛ حنان ماتت منذ عام.

أقشعر جسدي وتراجعت عنه مصدومة مما قاله لبرهة، وسرعان ما بددت صدمتي بصراخي:

- كاذب.

- أميرة، لماذا تصرخين؟

أتى صوتها من خلفي.

التفت لها بسرعة وقد أشرق وجهي فرحًا:

- انظر أيها الوضيع، ها هي على قيد الحياة.

- ومن قال ذلك؟ أميرة عزيزتي، أنا ميتة منذ عام، أنسيتِ؟!

كانت تنظر إليّ ساخرة بينما ابتسامة خبيثة تبتلع وجهها. أذهلني كلامها عما حولي.

استغل الرعديد ذلك صاعدًا سيارته ومنطلقًا بها في لمح البصر.

انكشف الحجاب عن وجه الحقيقة القبيح، صور من الذاكرة تتلاحق أمام عيني.

لم تصدق خيانتي لها مع زوجها. في ثورة غضبها هددتني، ستكسر صندوقي الأسود المدفون بداخلها، ستعرف الشرطة مَن قتل الراقصة، وسيصل إلى زوجي حقيقة مرضه وكيف أصابه.

هي مَن دفعتني لذلك بالاتفاق مع زوجها خوفًا من الفضيحة، كانت جرعات محسوبة من سم غادر، حاصرها المرض تدريجيًّا حتى أوصلها إلى النهاية المحتومة.

في غياهب الذهول، انتبهت على ذراعيها يطوقان كتفيَّ بينما تقول لي بهدوء مخيف:

- ألم أخبرك عزيزتي أن الملائكة لا تعيش على الأرض؟ يا ملاكي، مرحبًا بكِ في الجحيم!

تمت.

قصةٌ غير كاملة.. عبد الرحمن سامح

كان الضباب كثيفًا، بالكاد كنت أرى الطريقَ أمامي، الأمطار أخذت في التسابق إلى السقوط، الظلال أضفت على المشهد جوًّا دراميًّا يأسر النفس.

لا أعرف من أين جئت، فقط وجدتُ نفسي أسير بلا وجهةٍ ولا هدف.

اشتدت صعوبة الجوِّ فكان لا بُدَّ من العثور على مأوى.

الغريب أني بمجردِ أن فكرتُ في الأمر رأيت قصرًا باديًا أمامي على حين غرَّة، أكاد أجزم أنه ظهر من العدم!

وصلت إلى الباب الأماميِّ للقصر، وقبل أن أطرق الباب وجدته ينفتح أمامي على مصراعَيْه، أظنُّ أن أحدَهم يقرأ أفكاري ككتابٍ مفتوح.

كان القصر عتيقًا دافئًا له رائحة الماضي التي لا أحبُّها، مجموعةٌ من الصور تحجز داخلَها أشخاصًا مختلفين، واحدة منهم تحجزني رفقة امرأةٍ وطفلةٍ لا أعرفهما.

- أرى أن الصورة قد أعجبتك.

أصابني بعض الفزع رغم عذوبة صوتها، والذي أرعبني أكثر هو أن صاحبةَ الصوتِ كانت نفسها المرأةَ الظاهرة في الصورة معي. أنا لا أتذكر أني قابلتُها إطلاقًا، فضلًا عن التقاط صورةٍ معها!

طلبتْ مني أن أتبعَها إلى مكانٍ ما، وتحركت حتى قبل أن أبديَ اعتراضي أو أسألها أيَّ شيء، ويكأنها كانت تعرف ما أود قولَه.

قادتني إلى غرفة الجلوس، هناك طلبت مني الانتظار لبضع دقائق وهي تحضِّر الشاي.

مكثتُ في الغرفة مُتسمِّرًا مكاني لا أعرف ما بي، فقط أحسُّ أن أحدهم يتحكم بأفعالي فلا يسعني سوى قبولِ ما يقوم به.

كانت أضواء الشموع تشكِّل ظلالًا تتراقص على أرضية الحجرة، هل هيَّأَتِ السيدةُ هذا الجو الباعث على الرعب كي تتمكن من السيطرة عليّ؟!

بعد دقائق عادت السيدة تحمل صينيةً عليها أكوابٌ وإبريق شاي.

نظرَتْ إلى الخلف ببطءٍ ونادت بصوت خافت:

- تعالي يا هدى.

دخلت فتاةٌ صغيرةٌ تحمل دميةً في يدها وتوارت خلف جسد أمها.

ابتسمتُ لها وطلبت منها المجيء، نظرت إلى أمِّها نظرةً ذات معنى، فشجعتها أمُّها على الذهاب إليّ.

كنت قد توقعتُ سابقًا أن هذه الفتاةَ ستكون نفسها الظاهرة في الصورة السابقة، وهذا ما كان.

جلستُ أرتشف الشاي، وأنا لا أملك أي مقدرةٍ على الكلام، فقط نظراتٌ تتلوها نظرات.

الحقيقة أن هذا الجزءَ غيرُ واضحٍ بالنسبة لي، فما إن انتهيت من كوب الشاي ونظرتُ إلى النافذة حتى وجدتُ الجوَّ صحوًا وقد بدأت أشعة الشمس في رمي سهامِها برفقٍ حتى تغطيَ أرجاء الحجرة!

أنا متأكدٌ أن دخولي إلى هنا كان عند منتصف الليل. هذا شعورٌ داخليّ، فقط مرت ساعةٌ على أقصى تقديرٍ منذ وصولي إلى هنا؛ هناك خطبٌ ما بالزمن.

رأيتُ أنه لا فائدةَ من مكوثي هنا أكثر من ذلك شكرتُ لها حسن ضيافتها فابتسمَتْ لي وقامت تقودني إلى الباب.

ودعتُها هي والطفلة وانطلقتُ في طريقي أعاود السير دون وجهةٍ محددة، فقط سير.

بعد حوالي الساعة كان التعبُ قد تملكني، التفتُّ من حولي علِّي أجد مكانًا يصلح لأخذ قسطٍ من الراحة.

من بعيد رأيتُ مقهى صغيرًا يطلُّ بكراسيه الممتدة على العتبة الخارجية.

أسرعت المسير حتى وصلت إليه واتخذت مقعدي.

دقائق تَلَاها مجيءُ رجلٍ عجوزٍ ليرحِّب بي ويسألني عما أطلبه.

- أي مشروب دافئ.

قلتُها بعدم اكتراث.

- حسنًا، سأحضر لك كوبًا من الشاي.

انتبهت وقلت له:

- لا لا، لقد شربت الشاي منذ مدة وجيزة.

نظر لي باستغراب:

- أين شربته؟

- في القصر الواقع على الطريق.

- أي قصر؟!

فاجأني اهتمامه، فأخبرته بتفصيلٍ أكثر:

- ذاك القصر الذي تسكنه امرأةٌ وابنتُها، أتعرفه؟

عاد خطوتيْن إلى الخلف وصرخ:

- مستحيل!

نظرتُ إليه بعدم فهم، كأنه لمحَ تلك النظرةَ في عيني، فأضاف بنبرةٍ ذات مغزى:

- المرأة وابنتها ماتتا منذ عشر سنوات.

هكذا قصَّ أحمد حكايتَه على الطبيب النفسي، الذي ظلَّ صامتًا لعدة دقائق. أما أحمد فقد أخذ كوب الماء وشَرِبَه ليستعيد أنفاسه التي انقطعت من مواصلة الكلام.

بالطبع فإن الطبيب يعرفُ أن هناك خطبًا ما بقصة أحمد. ببساطةٍ، إن قصتَه مليئةٌ بالثغرات التي تساعده على الجزم بأنها غير حقيقية، قد يكون أحمد كاذبًا أو واهمًا، أو ربما يتهرب من ماضيه!

خائب الرجاء.. محمد جمال

بسرعة الصاروخ، ينطلق الليل وأناسٌ كالنمل يتحركون في جميع الاتجاهات ذهابًا وجيئة، يلملمون ما يحتاجونهُ من مُتطلبات.

مراهقٌ يخرج من (ورشتهِ) التي يعمل فيها قبلَ أذان الفجر بساعتين، ابن السبعة عشر شتاء، لازمهُ في الأربعة الأخيرة منها شعور بانعدام الدفء، وقسمة الظَّهْر، وغِياب السَّنَد. ساقهُ قَدَرهُ أن يكونَ عميدًا لبيته بعد أن مات والده ولم يترك له سوى والدته وأخته الأصغر، ومعاش يصمد عشرة أيامٍ في الشهر بخروج الأنفاس.

توقفت دراستهُ عند الشهادة المتوسطة، تعطَّلت أحلامه، يَحمل في مَطَاوِيه حَسرة لا يعلمها أحد، قرر أن يتحلى بالجُبن كي يرسو هو ومَن يَعول إلى برٍّ آمِنٍ.

بخطواتٍ مُسرعةٍ أتمَّ مهامه بعد معركة ضارية في محل (الفول والفلافل)، فحصل على وجبته اليومية، ومثلها في مَحَلّ البقالة حصل على أطباق لبن (الزبادي) والجُبن و(كيس) الخبز الأسمر المُقدّد المحبَّب لوالدته وأخته.

بخطواتٍ مُسرعة يَتوجه إلى بيته، وكعادته في الطرقات المُظلمة يَتوجس خيفة، يمشي وهو ينظر يمينًا ويسارًا؛ فله ذكريات سيئة فيها: أولها عضَّة كلب ألزمته البقاء واحدًا وعشرين يومًا في بيتهِ محمومًا تَخللتها أيام العيد، وآخِرها خروج بعض أشقياء حارته عليه في ليلة خميس ممطرة، وسلبوا منهُ راتب أسبوعٍ كامل غصبًا.

أما في النور، فلا يملكُ إلا الخيال، مُدركًا أن مثلَهُ من الشباب لا يملكون من مُتع الحياة إلا الأحلام، وعليهم أن يسيروا على خط وسط الحياة، وألّا يتعلقوا بالسِّمَاك مَضاءً، ولا ينتكسوا في الحضيض نقصًا وتخلفًا.

دخل بيته، وضع ما اشتراهُ على منضدة بيضاوية في منتصف غرفة المعيشة، وبعد جولة سريعة في شقتهم الصغيرة، لاحظ والدته تحتضن ابنتها وهما غارقتان في سُبات عميق، فقرر ألا يوقظهما إلا قبل أذان الفجر بخمسة وأربعين دقيقة.

وجد الفرصة كي يفتح شرفة غرفته ليُطمئِنَ جارتهُ عليه، تلك البنت الجميلة التي تسكن أمامه، والتي لا يهدأ لها بال ولا تستريح إلا وهي تراه مستقرًّا في بيتِهِ كل ليلة.

يعلم أن علاقتهُ بها ستنتهي حتمًا عندما يحين الأوان، ولكن سرّ انفتاحه على الحياة يكمن في حب هذه الفتاة له.

استسلم لشلالٍ من الماء الدافئ كي يطرد من على بدنهِ تراب الخشب، وينزع إحساس تعب يوم عمل شاق وإجهاده.

عاد إلى غرفة المعيشة كي يمدد بدنهُ على أريكة مفرودة أمامها تلفاز؛ ليتابع بشغف إعادة مسلسل "فارس بلا جواد"، فهو ينتظر حلقاته مثلما يشتهي النظر في وجه حبيبته.

اعتاد كل ليلة أن يتقمص شخصية حافظ نجيب، صاحب الألف وجه، يتحلى بشجاعته، يتدرج في ارتداء الوجوه من الشحاذ إلى جنرالات الإنجليز، ينتقم لوطنه من المُحتلين، يشعر بنشوة وهو يتخيل عشق كل النساء له؛ الأميرات،

وفتيات النخبة الجميلات، وأن يكون حُلمًا وغاية للبسيطات منهن. تقع في يده وثائق "بروتوكولات حكماء صهيون"، يكشف المؤامرة، يصطاد الخونة، ويزيح الستار عن المتسللين، يفعل هذا من دون جواد، فماذا لو توفر الجواد؟
فَقَد تركيزه وتوقفت حالة التقمص عندما سَمِع صوت خشخشة صادرة من أكياس الطعام القابعة على المنضدة.
نَظر إلى مصدر الصوت فوجد كل شيء ساكنًا في محله، تابع النظر إلى التلفاز ليلحق بالمشاهد الأخيرة من الحلقة، زاد صوت الخشخشة، توجَّس من الصوت، عاود النظر، وجد كل شيء هادئًا، لا يوجد بغرفة المعيشة حتى النسيم الذي يُحرك الساكن. ظن أن أكياس الطعام تستريح بعد أن وضع بعضها على بعض.
لم يكاد ينظر إلى التلفاز حتى ارتفع الصوت وعلا، نظر إلى المنضدة، بدأ الرعب يتسلل داخله وهو يرى كيس الخبز المقدد يرتعش، ينتفض، يحاول التحرك، بل شعر أنه سيتحرك على المنضدة.
تَغيرَ لونهُ من فزع، انتفض، جرى وليس في وجههِ دم، وجاء والدته مُتهدِّج الصوت يقول:
- أنجديني يا أمي.
استيقظت والدته من سُباتها على إثر صُراخه وخطواته المجنونة التي هزت أركان البيت، انتفضت ووقفت وقالت:
ـ ما بك يا محمد؟
ـ كيس الخبز يتحرك على المنضدة، يكاد يمشي!

ـ كيس؟! خبز ماذا الذي يتحرك يا خائب الرجاء؟

ـ أُقسم لكِ يا أمي أن كيس الخبز يتحرك على المنضدة.

وبنظرة تحمل كثيرًا من السخرية تحركت وسبقتهُ إلى غرفة المعيشة، حاولت أن تُكذب أُذُنها وهي تسمع صوت الخشخشة، ولكنها لم تستطع أن تُكذب عينيها، فقد تَغَلف وجهها بقناع الرعب وهي ترى الكيس يتحرك وكأن أحدًا قد قبض عليه من أُذنيه ورَجَّهُ وهزَّه هزات عشوائية بسرعة مذهلة، يكادُ كيس الخبز يتحرك على المنضدة.

امتزج صُراخها بصوتها العالي وهي تستعيذ بالله من الجن والشياطين.

استيقظت الطفلة على صراخ وهلع والدتها وشقيقها، صرخت مثلهم وبكت دون أن تعرف السبب.

دخلوا جميعًا إلى غرفة محمد وأغلقوا عليهم الباب، جلس في مخدعه وما زال قلبهُ يقوم ويقعد، وضع يدهُ على خده يفكر في هذا الشيء الغامض الذي تَسلل إلى بيتهم وأفسد حياتهم.

وقفت الأم مرعوبة مُرتبكة تحتضن ابنتها، وتفكر ماذا تفعل، وقعت عيناها على الهاتف الأرضي، وبأنامل مرتعشة حاولت الاتصال بجارتها أم أحمد، وانتظرت حتى سمعت:

_ خيرًا يا أم محمد، أسمع صراخًا وضجيجًا يأتي من ناحيتكم.

_ أنجدينا يا أم أحمد، لقد سكنت شقتنا العفاريت، رأيت كيس الخبز يتحرك ويكاد يمشي.

_ ضعي العقل في رأسك يا وَليَّه، فليالي رمضان لا تخترقها الجن والعفاريت، افتحي باب الشقة كي أرى ما يحدث.

_ لا والله، أغلقنا علينا غرفة محمد، ولن يجرؤ منا أحد أن يخرج ليفتح لكِ الباب.

صمتت أم أحمد لحظات ثم قالت:

ـ ألقِ بمفتاح الشقة من شرفة غرفة محمد، وسينزل أبو أحمد يجلبه ونصعد وندخل الشقة لنرى ما يحدث.

لحظات من الرعب مرت على العائلة حتى سمعوا صوت أبي أحمد يفتح باب الشقة، دخل، وقف أمام المنضدة، ثم أمسك بأُذني كيس الخبز وأحكم إغلاقه، خرج به، وضعه على الأرض أمام عَتبة الشقة، دخل شقته، جلب شومتهُ الخشبية الغليظة، ثم نزل بها على كيس الخبز أكثر من عشرين ضربة بمنتهى القوة، حَول أرغفة الخبز المنفوشة إلى لُقيماتٍ صغيرة مخلوطة بالدماء، هبط إلى الشارع مرة أخرى ليلقيه في صُندوق النفايات.

تَوغلت أم أحمد داخل الشقة وفتحت عليهم باب الغرفة، وبكلمات يقطعها ضحك هيستيري قالت:

ـ هيا يا مجانين، انتهى كل شيء، هَلموا لتتسحروا؛ فلم يتبقَّ على الفجر إلا أقل القليل.

تركتهم وانصرفت وهي لا تعلم أنهم لا يملكون كسرة خبز في بيتهم.

وقفت الأم تنظر لولدها، تُعاني وهي تبحث عن كلمات تُحدثهُ بها، قالت:

ـ قُم يا خائب الرجاء كي تشرب بعض الماء وتأكل طبق الزبادي.

وما إن أعطتهُ ظهرها حتى سمعت أذان الفجر، فتحركت لتتوضأ وعلى لسانها:

ـ لا حول وقوة إلا بالله.

كررتها عدة مرات ثم صلت الفجر واحتضنت ابنتها ونامت دون أن تتسحر.

أما محمد، فظلت عفاريت رأسهُ تَطن في أذنه وهي تكرر عليه كلمة خائب الرجاء. وجَّهتها له والدته مرتين، ووجَّهتها له عفاريت رأسه آلاف المرات.

صلى الفجر، افترش مرقده، اتخذ وضع القرفصاء، تغلف ببطانية سميكة، ظلَّ يُفكر في المتسلل القادم، وهل سيكون أقسى وأشد، حاول أن يُشعل السواد الكاتم وبدنه المرتعش ورأسهُ المرتبكة بحرارة أنفاسه كي يجرؤ علي أخذ أولى قراراته المصيرية.

دخَل في سُباتٍ عميق بعد أن قرر ألَّا يتابع المسلسل مرة أخرى؛ لأنه اقتنع بأن لو توفر الجواد فلن يُصبح فارسًا أبدًا، وكان قراره الثاني أشد قسوة وهو يُطلق العزم على عدم النظر في وجه حبيبته مرة ثانية.

في الصباح كانت درجات سُلَّم العمارة التي يسكن فيها شاهدةً عليه وهو يستغيث بالله من قوارع الناس وحصائد ألسنتهم، يمشي ناظرًا إلى الأرض، لم يرفع عينه تجاه شرفة حبيبته، نسي عطشه وجوعه. كان على قناعة بأن سُكان حارته سيقتلون نهار رمضان بالحديث والسخرية عن الأسرة البائسة التي باتت دون تناول وجبة السحور، وعن ذلك الشاب عميد الأسرة المُنتظر، الذي اشترى كيسًا من الخبز المقدد المنفوش فاخترقهُ جرذ صغير واستقر في أحد أرغفة الخبز وتَسلل معه إلى بيته.

- على فكرة، أنا أسجل مكالمة الفيديو هذه. كن حذرًا وانتقِ ألفاظك بعناية. أريد أن أحتفظ بهذا الفيديو للذكرى.

قالتها سارة بمرح وهي تضحك في دلال، وهي تظهر في المربع الجانبي الصغير في الشاشة، ليرد محمود، الظاهر في المربع الكبير للشاشة، قائلًا:

- لماذا هذه المرة بالذات؟ لمْ تفعلي هذا من قبلُ؟

- لأنني أريد تسجيل رد فعلك على المفاجأة التي سأقولها لك.

يرد محمود ساخرًا:

- آه. أعرف مفاجآتك التي هي على غرار انتهائك أخيرًا من مستويات لعبة (كاندي كراش)، أو حصولك أخيرًا على لون نادر من طلاء أظافر بحثتِ عنه كثيرًا.

تقطب سارة حاجبيها في غضب مصطنع وتقول:

- إذن أنت ما زلت تستهزئ باهتماماتي. حسنًا، شكرًا لك، لكن قل لي عن اهتماماتك تلك التي شغلتك عني الأسبوع الماضي بأكمله! لعلك تحضر رسالة ماجستير في الطاقة النووية مثلًا.

يرد محمود ضاحكًا:

- لا ليس الماجستير، فقط كنت نائمًا.

- نعم يا حبيبي!

- ليس نومًا بالضبط، أو ليس نومًا فقط، لكن دعيني أشرح لكِ.

تعرفين مدى سوء حالتي النفسية في الفترة الماضية وما يترتب عليها من سوء حالتي العضوية.

إنها علاقة طردية؛ الضمور في عضلات جسدي يزداد، جسدي ثقيل على قدميّ، أشعر بالحزن على ما حلَّ بي، أدخل في نوبة اكتئاب حاد، أتوقف عن تناول الأدوية، يزداد وضعي الصحي سوءًا، فتزداد حالتي النفسية سوءًا.

نهايتي اقتربت، أعرف أن الأعمار بيد الله، ومؤمن به، وأحمد الله على ما قدَّر لي من خير وشر، لكنني فكرت فيما قاله لي والدك عندما تقدمت لخطبتك فوجدته محقًّا، وشعرت بالأسف لتفكيري بتلك الأنانية. كيف أقبل لك وأنا أحبك أن تتزوجيني وأنا على ذلك الحال؟!

أنا غير قادر على قتل صرصورٍ في المطبخ جعلك تصرخين مفزوعة!

أنا غير قادر على حمايتك من أي شخص حاول التعرض لك أو مضايقتك!

أنا غير قادر على توفير حياة كريمة، فأنا لا أستطيع العمل، وآخذ مصروفي من والدي إلى الآن!

أنا غير قادر على الإنجاب غالبًا، وحتى لو كنت قادرًا، كيف لي أن آتيَ بطفل وأتركه وأرحل، فأحكم عليه باليُتم من قبل مجيئه؟!

أنا غير قادر على تحمل تلك اللحظة التي تحملينني فيها لقضاء حاجتي، بعد أن يضمر جسدي كليًّا وأُصبح كما يقولون (مثل العَظْم في القُفَّة)!

والدك محق، مرضي نادر، وتكاليف علاجي باهظة وخارج البلاد، وهي غير متاحة لي؛ لأنني لا أملك المال لكل هذا.

قررت الهروب من الواقع بالنوم!

مخدرات مجانية وجدت فيها ذاتي.
قرأت كثيرًا عن الأحلام، والأحلام الجلية، إلى أنت تطور الأمر ووصل إلى التحكم بالأحلام،
أصبحت أجد سعادتي في عالمي الآخر، عالم النوم، عالم الخيال، عالم الفانتازيا، أفعل ما يحلو لي، وأقابل من أريد، وأفعل الخوارق مثل كل الأبطال الخارقين.. أمشي، وأجري، وأطير، وأسبح في البحار والأنهار، وأسبح أيضًا في الفضاء بين الأقمار والكواكب!
وقد صرت محترفًا في التحكم في الأحلام وأفعل ذلك بسهولة، فقط أفكر وأقرر ما أريد أن أحلم به وأصفي ذهني تمامًا، وأغمض عيني وأنام، ثم أطلق العنان لخيالي.
لا أحتاج أن أفرِّق بين ما إذا كان حلمًا أم حقيقة؛ لأنني في الحقيقة لا أغادر غرفتي وسريري!
إذا أردت أن أستيقظ؛ أفعل أي شيء جنوني، كأن أطلق على رأسي الرصاص، أو أن أرمي نفسي أمام سيارة نقل مسرعة، أو أن أصارع أسدًا بيدين عاريتين.
أجرب شعور الانتحار دون أن أموت، أشعر بسعادة غامرة، تحسنت حالتي النفسية كثيرًا، فكِّري معي. فقط أنام. هذا كل ما أحتاجه لأكون بحالة جيدة.
لا أحتاج للدواء، لا أحتاج للعلاج الطبيعي، لا أحتاج إلى الطبيب النفسي، فقط أحتاجك معي من بعيد إلى أن يأتي أجلي وأنا سعيد.
آه. لماذا تبكين يا حبيبتي؟ آه. أكيد لأنني أخذت دور الثرثار منك هذه المرة على غير العادة! أعدك لن أكررها.

تظهر سارة في المربع الجانبي الصغير وهي تمسح دموعها وهي تضحك على دعابته الأخيرة.

- محمود، أريد أن أقول لك شيئًا وهو ما أسجل تلك المكالمة من أجله.

- آه. آسف، نسيت أنك تسجلين المكالمة! حسنًا، يمكنك إيقاف التسجيل لو أردتِ ولنبدأ مجددًا لتحدثيني عن لون طلاء الأظافر الجديد.

- محمود، لقد تواصلت مع أكبر مركز طبي في أوروبا، ولديهم علاج حديث لحالتك، ووجدنا متبرعًا لحالتك بالكامل، وسيدفع كل التكاليف. المسألة كلها مسألة وقت حتى ننهي إجراءات السفر، وستكون في الخارج للعلاج، ثم الشفاء التام بإذن الله، والمفاجأة الكبرى هي أن والدي وافق على خطوبتنا.

يظهر محمود في مربع الشاشة الكبير، يبتسم ويغمض عينيه في انتشاء ويقول:

- هذه هي ميزة الأحلام، يحدث فيها ما أتمناه تمامًا قبل أن أنام. هذا ما تمنيته وفكرت فيه بالضبط قبل أن أنام.

- محمود يا حبيبي، إنه ليس حلمًا، إنه حقيقة. عليك أن تفرح، ستتحقق أحلامنا أخيرًا.

- سأثبت لكِ أنه حلم.

قام محمود من سريره بتثاقل وبدأ يمشي قليلًا، ثم حرك قدمه اليمنى واليسرى وبدأ يغني ويرقص، وسارة تنظر له باستغراب، ثم أخذت تضحك ضحكة قلقة.

- يا حبيبي، على مهلك. إنها حقيقة صدقني.

اتجه محمود نحو الشرفة وفتح بابها ودخل، واستمر في الغناء والرقص وقال:

- سوف تشاهدين الآن أكبر إثبات أنني أحلم.

وقف على سور الشرفة وقال لها:

- كما قلت لكِ: أنا أحبك، ولا أريد شيئًا أكثر من ذلك.

تحولت نظراتها إلى فزع وصراخ وهي تحثه على الرجوع وهو مستمر في الرقص:

- أنتِ بجواري وأنا أغني وأرقص. يا له من حلم رائع!

ابتسم وأغمض عينيه وأخذ يرقص ويتمايل بعدم اتزان.. ليظهر المربع الكبير للشاشة أسود تمامًا، والمربع الجانبي الصغير فيه صرخاتها ودموعها بعد أن رأته وهو يسقط.. لتصبح بعدها الشاشة سوداء تمامًا.

تمت.

خطأ بسيط.. يسرا أحمد خميس

كانت تلاحقه بشراسة، تعوي وتلهث بصوت أصم أذنيه عما سواه، يحاول الهروب بين تلك الأزقة المظلمة، تتقطع أنفاسه، ويوشك صدره على الانفجار، لا يقوى على الالتفات للخلف، يشعر بأنيابها تحاول القبض على قدميه، يتعثر ويسقط فتتطاير من جبينه حبات العرق، تتجمهر من حوله بلونها القاتم وأنيابها الشديدة البياض، ويبدأ النهش.

هب من نومه صارخًا:

ـ لا، الرحمة.. الغوث.

يضربه دمع القهر كإعصار يهتز له جسده كله، وتنتفض له روحه، يغادر سريره المبلل للمرة الخامسة والستين بعد الثلاثمائة، أحصاهم وعدَّهم عدًّا.

عام كامل منذ عاد، لم يعرف معنى النوم سوى في سرير أمه وفي أحضانها، والتي هبّت إليه؛ أيقظتها صرخاته المرتعبة. تُلقي عليه من لهفتها وحنانها ما يهدِّئ من روعه، ويعيد إليه بعضًا من أنفاسه المبعثرة. يستند إليها حتى يصل إلى حمام غرفته، بينما تعود لتلملم المِلَاءة المبللة وهي تمحو في غفلة منه تلك الدمعة التي تغلبها، تعاودها ذكريات كيف عاد، وكيف غاب خمسين يومًا وليلة. حسبتْها بدموعها. كره على كره.

ـ خطأ بسيط ولن يتكرر. هكذا أخبروها.

هو بريء بلا شك، لم يخنِ الوطن أو يزعزع أركانه؛ لم يهتم يومًا بسياسة، يذهب الحكم ليد من يشاء، كل ما يعنيه هو تجارته وسيارته الأحدث موديلًا، وبعض الغراميات النسائية المعتادة لشاب في مثل عمره. حباه ربه القبول والمال حتى قابلها.

شدت المِلَاءة بعنف وهي تهتف:

ـ لعنة الله عليها.

سمعها وعرف المقصودة فتمتم لنفسه:

– وكيف كنت سأعرف أن هذا سيحدث.

تذكر كيف قابلها أول مرة، تلك الجميلة ذات العينين الزرقاوين، المُطلَّقة مهيضة الجناح، تركها زوجها وغادر البلاد هربًا. تشكو من ضيق الحال وتطلب معونته لبيع بعض ممتلكاتها؛ لتعينها أثمانها على الحياة. تكررت المقابلات، زادت الثقة، وتعلق قلبه بها.

عادت ذكرى الحلم تراوده، وتلك الكلاب تطارده بعنف. ضم جسده بكلتا يديه وشرد بعيدًا.

– كنتَ على صلة بفلان. مِن مصلحتك تتكلم على طول.

– يا فندم أنا قلت للبيه امبارح والله ما اعرفه ولا عمري شُفته.

– أمال عربيته بتعمل إيه قدام بيتك.

– يا فندم دي بتاعة طليقته لجأت لي عشان أبيعها.

– والمظاهرات؟ أنت عارف هو عايز يعمل إيه في البلد؟

– أنا ماليش في السياسة ولا أفهم فيها.

- وأنت لو كان ليك في السياسة كنت هتبقى قاعد قدامي كده معزز مكرم.

ارتجفت الدماء في عروقه وهو يمسح عرقه، وأكمل المحقق حديثه بابتسامة واثقة:

- احنا عارفين عنك كل حاجة من يوم ما ولدتك أمك.

- طب يا فندم أنا هنا ليه بقى؟

- عايزينك تجيبلنا أخباره من صاحبتك، هي مش كانت صاحبتك برضه.

- يا فندم دي مجرد معرفة شغل، وماكِملتش حتى، وسافرت. أكيد هي...

قاطعه الضابط في عنف وهو يمد يده إلى عنقه بقوة صارخًا في حزم:

- شغل إيه يا روح أمك، ده كان جَو، وجَو كبير كمان؛ فتعال معايا دُغري أحسنلك.

وقذف به الضابط إلى الخلف ليسقط أرضًا مع كرسيه.

يهبّ إليه الضابط ليعيده إلى جلسته وهو ينفض عنه ما لحق بملابسه من وسخ ساخرًا:

-كده برضه، عاجبك البهدلة دي، قولتلك خليك دُغري.

ازدرد الكلمات قهرًا ولم يُعقب، ليكمل الضابط حديثه في صلف:

ـ عايزين نعرف المكان المختفي فيه؟ مين اللي بيساعده هنا في مصر في قصة المظاهرات دي؟

لم يكن يعرف أن الجنون قد عم البلاد، وأن ليس لوسائل التواصل حديث سوى عن الهارب المتبجح، ولزم على رجال الدولة جمع خيوط القصة ودفنها

بأسرع ما يمكن؛ لمنع تسرب المعلومات قبل أن يغرق استقرار الحاكم والمحكومين.

كان لهم آخر قشة للنجاة؛ لذا وجب الضغط.

ضغط بدأ بالانفرادي، وانتهى بالكلاب المسعورة.

علا صوت نحيبه، وأغرقت دموعه ملابسه، هرعت إليه أمه ملتاعة، لم يخبرها أبدًا عما حدث هناك، ولكنها تشعر بتأوه روحه وجروح كرامته. تمازحه:

-يا واد السجن للجدعان، غمة وانزاحت.

يمسح دموعه، يراود قلبه على ابتسامة لخاطرها، فتأتيه كشمس مغيب في يوم شتوي شديد البرودة، تهبها رعشة لأوصالها. عوضًا عن طمأنتها تتفجر مآقيها وعيناها مرفوعة للسماء تضرعًا:

ـ يا حنيِّن على الغلابة يا رب.

يهبُّ إليها يحتويها بين ذراعيه، تتعثر كلماته على شفتيه، فتتبعثر بلا معنى سوى "أنا بخير".

يتركها ليتجهز للخروج لعمله، فهو ملاذه البعيد عن كل ما مضى.

تأنق كعادته وتعطر. بالغ في التعطر ليسمع مقولتها المحببة:

ـ يا واد دوختني، بالراحة على بنات الناس.

تعلو ضحكاتها وتبدد غيوم صباحهما الكئيب.

يقبل يدها بحنوّ ويتجه إلى الباب.

طرقات عنيفة تعيده إلى أمه، يمسك بيدها المرتعشة، يكاد ينخلع قلبها، تهمس به:

- ما تفتحش.

يتمنى لو استطاع، يخطو الى الباب، كاد أن يتعثر مرتين، وعندما فتح طالعته وجوه جديدة، ومطلب قديم "ضبط وإحضار".

صرخت الأم:

- تاني، حرام عليكم، مش خلاص عرفتوا كل حاجة.

رد أحدهم برأفة مصطنعة:

- ما تقلقيش يا حجة، هنشوف موبايله وهيرجع على طول.

همت بالرد، لكن أخرستها نظرته الصارمة وصرخته على ولدها:

-يلا يا بني، مش فاضيين.

تحرك معهم مطأطئ الرأس؛ لم ينسَ كيف عاد يحمل بداخله ندبات أشد عمقًا من جروح قدميه أو يديه مست كرامته وسحقت روحه. يضج صدره بصرخات الرفض، ترتج في حلقه، فتخرج كسعال قوي، استمر حتى بح صوته. يهمس:

- والله ما عملت حاجة.

ولا سامع أو مجيب.

غادروا وتركوا من بعدهم العدم، صمت مطبق لم يقطعه سوى تأوهات أم اجتثوا بعض قلبها، ولا تعلم متى سيعيدونه.

تمت

الظِّل.. إسراء جمال عبد النبي

شعور قاتل، ورغبة عارمة في الهرب، وترك كل شيء ضرَبا رأسها هذه اللحظة، ودون أن تلعن أو تُفرِغ غضبها بالصُّراخ استمرَّت صامتة، لا تعلمُ كم سيستمر ذلك، لكن الأمر قتل فيها شيئًا لا تُدرِك كُنهه، تلك الوحوش الصغيرة بأيديها التي تضرب كتفها في اللحظة مائة مرة، الممر المُظلِم الذي يخفق قلبها كلما عبرته، وتتراقص أمامها أشباح من دُفِنوا فيه قبلها، لا تدري هل هو خيالُها المُتعب يتأثر بواقِعها السقيم أم هي حقيقة لا يستوعبها عقلها، وللدَّرج دور مُحير، فهي لم تعرف بعدُ أهو وسيلة مغادرة هذا الجحيم، أم رحلة إعداد لما هو أقسى. على الدرج تجد المُهملات، الكثيرَ من أطراف الأصابع، وأحيانًا أيادي كاملة، وبعض الحناجِر، ونفسها المقتولة.

تمر على طيفها الحزين فتنحدر الدموع من عينيها كحال من عرف البكاء لأول مرة، ترفع يديها لتتلمس جروحها الغائرة، ثم تمدهما لموضِع قلبها، وتتعالى النداءاتُ حولها:

ـ نحبُّك.. تعالي إلينا.

ولأنها اعتادت لم يعد يثير فيها الصوت إلا الأسى، يتخبط بداخلها شعوران هما: الرغبة في الهرب، والخوف مما بعده، وكِلاهما شاق.

في يومها الأوَّل كانت بهجة المكان الخادعة تأسر قلبها المسكين، زقزقة العصافير ورائحة أزهار النَّرجِس مع شغفها البرئ، والبسمات التي استقبلتها.

لسذاجتها؛ ظنَّتها بداية جديدة، رحلة ممتعة، وتمنَّت بعدَ ذلك لو أدرَكت لحظتها كل شيء، لو صدقت انطِباعها الأول عند رؤية مدير هذا المُستنقع. أوحى لها عقلها حينها بأيادٍ صغيرة تمتدُّ حوله تستعطِفُه. قادمون جُدد مثلها يرجونه، وكتيبةٌ من التابعين يكتبون القوانين المُتَّبعة وينهشون أيَّ يدٍ تمتد، ويظهر هو بمظهر الطيب رغم كل ما خطته يد ضحية على أنحاء جسده عن جُرمِه في حقِّها. وأطرقت برأسها تعنِّفُ خيالها الأبله.

تتذكَّر الآن حديثَه كامِلًا بعد أن حيَّاها بوجهٍ بشوش، وكاد أن يلثم يدها بعد التحية، لكنها سحبتها في خفَّة، تسرب إليها شعور أنه كالحوت، وتراجعت عن الرحيل بسبب ملل الفراغ وحاجتها للمال.

بعد فترة اكتشفت بعيدًا عن مكتبه بخمسين مترًا دورات مياه مهجورة، تفوح منها رائحة عفنٍ تمتزِج بالنشادِر وبعض أحلامِ الطُّفولة، وعلى الباب لافِتة كبيرة "لا تقترِب!".

وطالما حرَّكَها فضُولُها.

بعد أسبوع ازداد انقِباضُ نفسِها من المكان، حاولت إقناع نفسها مرارًا بالبقاء لكنها فشِلت، الأطفال بهم شيء غريب، والزُّملاء يتكالبون على المال بجشعٍ لم تره من قَبل، وعلى مقدمة رؤوسهم ترى رسومًا غريبة.

ذات مرة كانت تسأل أحدهم عن وسائل لتقوية ذاكرة الأولاد، فاسترسل في الحديث وتسمَّرت عيناها على صورته وهو ينتزع أصابع طفل واحِدًا تلو الآخر، ثم يضيف إليها الأثير في هدوء تام. ارتجف جسدُها وتراجعت للخلف، حاولت كتم خوفها، تعلَّلت بصداعٍ مُفاجئ وذهبت لحجرتها.

أغلقت الباب بخوف ووقفت بمنتصف الحجرة، ثمَّ وضَعَت وسادتها على فمها وصرخت بأقصى قوة، تناولت صورة أخيها من على المنضدة واستمرَّت بالبُكاء، توقن أن ما رأته هو بعض من كل لا يقدر قلبُها على تخيله، وللأسف تلزمها القوة لتدرك ما حدث بالضبط أو سر هذا المكان، وراودتها فكرة دخول المنطقة المهجورة، وبعد تردد تحرَّكت بفضول ممتزج برغبة الانتقام.

بعد أسبوع من متابعة تحرُّكات الجميع -أثناء إجبارها على الإقامة هناك بعد محاولة استقالتها وفشلِها في الهرب- انتظرت حلول الليل، أمسكت بالمصباح وثبَّتت حقيبة ظهرِها وانطلقَت بحذَر.

عبرت عتبة بابِها وتسللت على أطراف أصابِعِها إلى المَمر وسط البُكاء المُتصاعِد، والهمهمات المُخيفة، والظَّلام الدَّامِس، والذكريات المؤلمة، الجروح بجسدِ الأولاد، نظراتهم الغريبة، وتأخُّر الاستيعاب المسيطر على جميعِهم، حاولت التَّغاضي عن ظل الحارِس الذي يُرعِبُها طوله، لكنَّها توقَّفت بمُنتصف الطَّريق، فكرت في الاستناد للحائط، لكنها لا تعرف ما قد يحل بها؛ لذا عاودت السَّير من جديد وطبَّقت قرارها بإغماضِ عينيها كلما رأت شيئًا مُخيفًا، فلا أحد في المكان غيرها وهذا الحارِس. في نهاية الممر سقطت، وجَّهت المصباح لما لمسته يدها، فوجدته ورقة من نوع تسع أسطر بها اسم أحد تلاميذها وعبارة: "اهربي" بخط مُتعرِّج.

وبسبب وقع الأقدام التي تقترِب، التقطتْها وأطفأتِ الإضاءة، وخرجت من الممر إلى السُّلَّم، كتمت أنفاسها والتصقت بالسُّور الحديدي، وسمعت حديثًا مُتبادَلًا فأنصَتت لصوت الحارس يقول بتشفٍّ:

ـ الأمر ليس سهلًا.
ليُجيب المُدير الحوت بصوت قَمِيءٍ:
ـ لا أُريدُها أن تُفلِت، ودون خدش واحد.
ولم تلتقط شيئًا بعد ذلك، حيث ابتعدَا للطرفِ الآخر، وبدأت تتحرك عندما تأكدت من ذلك، ابتعدت عن دعامة الدرج الحديدية وهبطت في تأنٍّ، كانت تحاول استيعاب ما يحدُث، تفاجأت بيد تقبض على قدمها، وجهت المصباح بحذر فوجَدت طِفلًا أسود مذعورًا، لم يقُل غير "لا"، وسمعت جلبة قادمة من الممر، فأفلتت يده وجَرت بكل قوة.
عبرت الدَّرج المُخيف والسَّاحة بسرعة جنونيَّة، وتوقَّفت تنظر للافتة وتلتقط أنفاسَها، خاصةً بعدما تأكدت أن لا أحدَ خلفها، قدَّمَت رجلًا وأخَّرت أُخرى، كانت توقن أنه لا مفر، وما دام الأمر كذلك فلتُشبع فضولها وإن لم تستطِع الانتقَام، زفرَت عدَّة مرَّات، شدَّت الحقيبة على ظهرِها، واستجمَعَت نفسها ومضَت. كان القُفل صدِئًا؛ ممَّا صعَّب فتحه ببنسةِ شعرِها، استخدمت مطرقة صغيرة وجدتها بمكتبِ المدير يومًا، حاولت أن يتمَّ الأمر دون ضجيج، ومع كل محاولة كانت تتلفت بكل الجهات، وانفتح القُفل بعد عناء.
حركت الباب بهدوء، وصدمت أنفها رائحة عفن ممتزجة بالنشادر والدماء، فرفعت كفَّها لتمنعها من المرور لأنفها بسرعة. أثناء سيرها كانت تحاول الاستكشاف بمصباحها الصغير، وجدت المكان أكبَر ممَّا تتخيَّل، حاولت دفع حادث اختفاء أخيها منذ سنتين عن رأسها وكل الاحتمالات ولم تستطِع، تعثَّرت قدمها بجثة طفل نُهبَت كل أعضائِه، وقبل أن يصدر جسدها أي

استجابة رأتهم بفضل الضوء الضَّعيف، الجميع يقف بضحكةٍ سخيفة، وأجسادٍ ممشوقة، لكن وجوههم تطفحُ بشرٍّ العالم.

أبوها بجوار المُدير، والأساتِذة مصطفُّون جميعًا، وهي بين صدمة ما أدركته وما سيحدثُ لها، أدارت عينيها بينهم جميعًا وسقطت أرضًا.

تمت.

القرار.. أحمد سعيد

يجب أن نلتقي هناك!

انتظريني بلا يأس.

لن أخطئك في هنوم الصقيع

جاءتني الفكرة خفية، وبهدوء تسللت إلى روحي، وبدأ فكري يتحسسها ببطء، وحينذاك انبثق سواد الظلمات في قلبي كأنه سقوط مفاجئ في الجحيم، وتراءت لي صورة إِدجار تخاطبني كملاك أبيض يريد إنقاذي، وإن لم تكن روحه التبست بجثتي دون جثث العالم، فإني أخبره أن قصاصين هذا الزمان جعلوا من الرعب والفزع مجرد مزحة كبيرة؛ لأنهم حصروه في تلك المخلوقات الخفية التي أسموها بالأرواح الشريرة تارة، وبالأشباح تارة أخرى، مُتناسين أن الرعب الحقيقي هو ما يقبع بنفوسنا ونصدره للآخرين بكلمات وأفعال تبدو خارج سيطرتنا، وإن كانت كذلك حقًّا بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

إنني الآن أرتعد بشدة واحترق بين جحيم هذه الألف كلمة، ليس في قبر بمنزل الموتى، بل في غرفة بمنزل أمي، لا أستطيع النوم سوى ساعة واحدة في كامل اليوم، لا أشعر أنها أمي التي ولدتني، بل أشعر أنني ابنها بالتبني رغم كل ما تفعله لأجلي، وربما هو شعور منطقي لأنها لم تقم بتربيتي في الصغر. ووسط جهودي الشاقة المتكررة وصراعي الصارم لأن أُحبها، فإنني لا أشعر أبدًا نحو أحد بالحب إلا جدتي وبنات إخوتي البريئات المرحات، وطفليَّ الصغيرين،

وأشفق عليهم كثيرًا، وإنه ليُدمي قلبي أن يكون ملائكة مثلهم أحياء في هذا العالم المقيت. أما أبي فمجرد أكذوبة التصقت باسمي عبثًا؛ لأنه ليس أبًا، بل ميت على قيد الحياة.

وإخوتي؛ مرت سنوات، سنوات طوال جدًّا وأنا يشدني دوار مُرعب بألا أكرههم، لكني لم أستطيع رغم ما عانيته إلا أن أكرههم بشدة لا يمكن أن تصفها الكلمات، بسبب ذلك السكون البارد في قلبي، وبالأخص الأخت الصغرى؛ لأنها كانت السبب الأوحد في تعاستي ودمار حياتي بفضل خيانتها لي.

الإخوة، أنا حقًّا لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة؟

كان ذلك ربيع عام 2009، بإحدى زياراتي لها، حين وقعت عيني عليها هنأتني سريعًا بابتسامة حزينة بعيد ميلادي الخامس والعشرين، أي بعد مروره بما يقرب من عشرين يومًا، وقالت خلال حديثنا القصير:

ـ ألم يئِن الأوان أن أرى لك طفلًا وأحمله قبل أن أموت؟

لم تكن تلك المرة الأولى التي لا أحتفل بالأول من آذار، لقد مضى وقت طويل على ذلك مراعاة لمشاعر تلك المسكينة التي قاست الويلات من السرطان اللعين الذي فتك بجسدها خلال جلسات الإشعاع والكيماوي، ثم كافئها ذلك المدعو أبي بأن طلَّقها وطردنا معها صغارًا من المنزل كالجِرذان نُصارع الدنيا وقسوة الفقر المُدقع بعد أيام رغد العيش، وتزوج من مُطلقة بدوية لعوب تصغره باثنين وعشرين عامًا.

ضحكت وأنا أردد:

ـ تعلمين أن صداقة الفتيات آخر همي، كيف سأتزوج فجأةً هكذا؟

لمْ تُفكر كثيرًا وحدثتني عن صديقة لأختي الصغرى تُحبني منذ عامين، وطلبت مني أن أفكر جديًّا؛ لأنها ستكون موجودة خلال زيارتي القادمة في عيد ميلاد ابنة أختي الكُبرى، صُدمت قليلًا من فكرة أن هناك فتاة تُحبني منذ عامين، لكن أثارني الفضول -ما ألْعَنه!- أن أعرفها.

قبل شهر من اللقاء، فكرتُ بجدية في أمر الزواج، وعزمتُ على فعل ذلك حاسمًا أمري؛ لأنه سيكون جبرًا لخاطرها وإسعادًا لها، ولأنني ضِقتُ ذرعًا من السُّعار الجنسي الذي يقتلني، خاصة أنني أعمل بمجال السياحة ولدي صديقات أجنبيات كُثر. لقد كذبت بالطبع. الأم ليست كالأب كي أصارحها بأنني سأنفجر من فيضان الشهوة الذي يغمُرني، مُتحاشيًا -كالقابض على جمر- أن تكون لي علاقة كاملة مع إحداهن.

وسط صخب الموسيقى وازدحام المكان بالرُّواد من الفتيات والنسوة، وجدتُ لي رُكنًا في الشُّرفة، أشعلت سيجارتي الدنهل المُفضلة، ومكثتُ أشاهد الفتيات الكثيرات بالداخل، شاطحًا بأفكاري تُرى أيًّا منهن ربما تكون العروس، حتى تسلل صوت ناعم داخل أفكاري يتساءل:

ـ فيما تُحدق أيها الشاب؟

فنظرت لها مرددًا:

ـ أبحث عنك.

ضحكت بخفة وهي تضع كرسيًّا أمامي: وكيف لك أن تعرفني وأنت لم ترني من قبل؟ فتنهدت من صميم روحي:

ـ إنه إحساسي.
كان جمالها أخَّاذًا بشدة لدرجة تخطف الألباب، ورغم كل ما شاهدته من فتيات غربيات، فإني شعرت أن التي تجلس قبالتي هي الفنانة روبي بكامل أنوثتها، وقوامها المصري الممشوق كالملكة نفرتيتي، غير أنها كانت ترتدي ملابس أختي، مما أوضح لي أنها قروية، وإن كانت أشبه إلى حد كبير بساحرة غجرية في لباس المدينة.

أعادتني فجأة من غيبوبتي التي لا أدري كم استغرقت من وقت، بقولها:

ـ إحساسك صادق يا آدم، أنا التي أحببتك قبل أن تلدني أمي.

كانت المرة الأولى التي تختلط فيها أحاسيسي ويملؤني ضباب كثيف يعدم الرؤية، وأكاد أجزم أن روحي رحلت لمكان سحيق خارج الكوكب، وكنت أردد رغمًا عني:

ـ أنتِ فاتنة. أنا لمْ أعرف هذا الإحساس بحياتي إلا اللحظة.

فأشارت إليَّ أن أعطيها هاتفي، وحين فعلتُ أجرت اتصالًا بهاتفها وقالت وهي تنهض:

ـ سأتصلُ بك.

ضحكتُ وأنا أومئ لها:

ـ أنا كذلك سأذهب. لقد أزف الوقت.

جاءني اتصالها عند الرابعة عصرًا بعد محادثة طويلة مُلتهبة على واتساب، وعلى إثرها قررنا اللقاء.

أخبرتها أنها ستجد سيارة أجرة خاصة أمام منزل أمي ستقِلُّها إلى مكاني، حيث يمكننا الحديث براحة أكثر. نزلتْ من السيارة والسائق يُشير لها حيث أقف. لوحتُ لها من منتصف شارع تصفه القبور يُمنة ويسارًا.

فور وصولها سألتني والدهشة تعتريها:

ـ ماذا تفعل هنا يا آدم؟

فضحكتُ ضحكة صاخبة:

ـ يا روحي، هذا أكثر مكان أصبح يمكنني الراحة فيه. صهٍ، أيمكنك سماع الموتى وهم يتشاجرون؟

ابتسمت نصف ابتسامة بارتياب، فقلت بغضب:

ـ هل تتذكرين هذا القبر حيثُ يرقد طفلنا الأول سعيد بلا سلام؛ لأنكْ قتلتهِ بطريقة بدت طبيعية بمساعدة أختك وزوجها؟ كم مضى من سنوات على لقائنا الأول بعيد الميلاد؟ عشر سنوات من الحُزن المرير. بدتْ مُنهارة وحاولت الفرار، لكنني أمسكت بها وأوثقت ذراعيها وقدميها بالحبال، ووضعتُ شريطًا لاصقًا على فِيها.

ضحكتُ بمرارة وأنفاسي تتلاحق:

ـ أتذكرين أنكم جئتم بذات الليلة وقمتم بشق صدره الصغير وحصلتم على قلبه لتقدموه قربانًا للشيطان؟

أتذكرين تلك اللحظة حين ضاجعتُك ووجدت أنك لست عذراء؟ أنسيتِ الحُب والرحمة؟

تبًّا، لِمَ سَتَرتُ عِرضك ولمْ أُمرِّغ شرفَ أهلك في الوحل؟ أكنتُ أستحق أن يُقتل طفلي بعد كل ذلك ويُمثل بجثته، ثم تستمر خيانتك لي مع زوج أختك الذي هتَك عِرضك دون أن يبالي؟

ساعدتها على الوقوف وأسندتها إلى حائط القبر، وقمت بنزع الشريط من على فِيها. قلت لها:

ـ قبِّليني بنهَمٍ كما كانت عادتك.

طلبت مني أن أسامحها وهي ترتعد من الرعب، فقلت:

ـ سأسامحك بشرط أن تُقبّليني بنَهَم.

وحين فعلتْ ابتعدتُ عنها وقمتُ بوضع الشريط على فِيها وعينيها بكثافة أكبر، تاركًا لها مكانًا لتتنفس فقط. عانقتها بشدة وفتحت باب القبر وطرحتها بالداخل.

قلت لها:

ـ ارقدي دون سلام إلى الأبد كما فعلت بطفلي، ولتنعم روحه الآن بالسكينة. انتظريني فقط دون يأس؛ إننا سنلتقي هناك مجددًا.

أغلقت باب القبر، ورحلتُ في هدوء انتظارًا للجحيم.

تمت.

العريف.. محمد عوني

أشرق الصباح وهو جالس كعادته داخل المبيت الخاص به مرتديًا زيه العسكري، بعد أن أمر جنود الخدمة النهارية بالانصراف، يحرك قدميه في توتر شديد كأنه ينتظر حدثًا ما، تعالت أصوات أزيز سريره نتيجة ذلك الفعل، توقف فجأة عندما أتى الصوت من خارج المكان:

ـ حرس سلاح. حرس سلاح.

انتفض من مكانه وخرج مسرعًا، فوجد الجميع يهرول من حوله وكل منهم ممسك بسلاحه، ولا أحد يعلم ماذا حدث.

بعد لحظات وقف الجميع داخل أرض الطابور يتهامسون فيما بينهم عن مقتل جندي البوابة الخلفية، وابتسم هو في خبث.

مساء أمس كان الجنود داخل أرض الطابور بينهم عريف يتولى تدريبهم حينما وصلت سيارة قائد الكتيبة حاملة جنديًّا مستجدًّا تم إلحاقه بالسَّريَّة. ترجَّل منها ووقف يتأمل ما حوله، وحينما رآه العريف تغير وجهه وناداه في غضب، فنظر إليه المستجد وتغيرت ملامحه؛ كساها الخوف. تقدم بخطوات متخبطة حتى وقف أمامه على مسافة قليلة، وتقدم العريف نحوه ونظر إليه طويلًا، ثم مد رأسه لتجاور فمه أذن المستجد قائلًا:

-هل تتذكرني؟

-هل تتذكر وعدي؟

– الليلة.

عاد العريف ووقف أمام الجنود، ثمَّ نظر إلى ساعته وقال:

ـ انتهى التدريب، معكم نصف ساعة للاستعداد لتسلم الخدمة الليلة.

ثم نظر إلى المستجد وابتسم له قائلًا:

ـ وأنت أيضًا استعد، ستتولى أمر خدمة البوابة الخلفية.

انصرف الجنود من أمامه، بينما وقف هو يتابع المستجد بنظراته حتى اختفى داخل مبيت الجنود.

ذهب العريف مسرعًا إلى غرفته وفتح خزانة ملابسه، ثم مد يده وأمسك بكتيبٍ بين طيات ملابسه، كتيبٍ صغير ذي جلد أسود قاتم، صفحاته تحمل لونًا مائلًا للصفرة، وشرد بذاكرته لماضٍ ليس ببعيد؛ كان يجلس وسط أهله حينما صعقهم الهاتف بنبأ وجود أخته داخل مشفى بعد أن تعرضت للاغتصاب على يد ذلك المستجد، وانتهى الأمر بزواجهما لفترة ثمَّ الطلاق، بعدها اختفى من حياتهم. حينها أعطاه والده ذلك الكتاب وأخبره أنه سيأتي يوم لينتقم، فقط عليه ألا يتسرع في استخدام الكتاب، عندما يحين ذلك الوقت ستعرف من تلقاء نفسك.

أمسك الكتاب بكلتا يديه بقوة متمتمًا:

ـ حان الوقت، سأنتقم لكِ أختاه.

تجمع الجنود قبل الخروج لاستلام الخدمة الليلية، نظر إليهم العريف وتجنب النظر إلى خصمه المستجد، أصدر لهم أمرًا بالانصراف وذهب بعدها إلى مبيت

الجنود، استغل فترة خلوه أثناء فترة تبديل الخدمات ففتح خزانة المستجدّ وأخذ قطعة من ملابسه وخرج مسرعًا، بعدها عاد إلى مبيته وأحكم إغلاق الباب.

عند منتصف الليل، أسدل ستائر النوافذ، وجلس في منتصف الغرفة، وأضاء شمعة صغيرة جلس أمامها، أمسك بقطع القماش وأحرقها وهو يتمتم:

ـ ب ر ج أ س د بخ ياهوم، ب ر ج أ س د بخ ياهوم ياهور.

اهتزت الستائر وتراقص معها ضوء الشمعة، فابتسم في خبث ثم أكمل بحماس:

ـ جلبلا جليوت وجلجلوت بالإجابة، جلبلا جليوت وجلجلوت بالإجابة، يغور أسود يقاد سرا بيانه لا يراه سواه، عذابه شديد، وقتله بطيء، وأراه بعينه، ويراني حين وقته، جلمهوج جلاله وجلجلوت بالإجابة، ياهور ياهور، بآل شداي أقسمت، وبآل شداي أُطاع".

ما إن انتهى العريف من تلاوة تعويذته حتى انقطع التيار الكهربائي عن السرية بالكامل، وتعالت أصوات زمجرة كائن مفترس، نظر أمامه فوجد عيونًا لامعة وسط الظلام، ارتجف من الخوف وبصوت مرتعِش تحدث قائلًا:

ـ "بآل شداي أقسمت وبآل شداي أُطاع"

فزمجر الكائن مرة أخرى وتحولت عيناه اللامعتان تجاه البوابة الخلفية وللأعلى ثم اختفى.

على الجانب الآخر كان المستجد يقف عند البوابة ممسكًا بسلاحه منتبهًا، مع مرور الوقت هاجمته الأفكار عن العريف وما سيصنع معه، لقد أخطأ وظن

للحظة انه سيكفر عن خطئه طيلة عام كامل تحت يد وبصر العريف، ولم يكن يعلم ما يُعد له.

هبت نسمات خفيفة تسلل معها البرد إلى داخله، ارتجف قليلًا وحدثته نفسه بالتحرك بعض الوقت لتتبدد مخاوفه، خرج من دُشمة الحراسة ووقف أمام البوابة ينظر إلى ما خارجها، الطريق ممهد مظلم وسط أرض مزروعة، أعمدة الإنارة مطفأة إلا واحدٌ يومض كل فترة ليكشف ما حوله لثوانٍ، وبالداخل يمتد الطريق وسط أعواد نبات الغاب، كان المشهد كافيًا ليوقظ داخله كل ما هو مرعب.

قطع الصمت صوت تحركات داخل الغاب فشعر بانقباض قلبه ونظر في خوف إلى مصدر الصوت، عاد الهدوء لثوان قبل أن يتحرك شيء ما بقوة ويركض نحوه صارخًا، مرَّ جانبه فسقط على الأرض من شدة فزعه، ضحك من سذاجته وانتصب واقفًا مرة أخرى وهو يسخر من نفسه؛ فقطٌ أسود كاد أن يميته خوفًا.

التفت باتجاه البوابة ونظر إلى الخارج فوجد كائنًا أسود اللون لم يميز ماهيته ينظر إليه، وانقطعت الإضاءة ثم عادت فلم يجد له أثرًا. أمسك سلاحه في وضع الاستعداد ثم أدرك أنه من الغباء إطلاق النار على لا شيء فربما كان كلبًا شريدًا، لكنه بدأ يشعر بالملل الممزوج بالخوف، نظر إلى ساعته وقد انقضى نصف الليل ومازال أمامه نصفه الآخر في ذلك المكان الموحش.

هبت نسمات باردة ارتجف على إثرها، اشتدت جشأة ريح الفجر وارتفع صفيرها ممتزجًا بزمجرة شديدة، تلفت في خوف فوجد ذلك الكائن يقف أمامه، نمر أسود اللون، عيناه شديدتا الصفرة، مخالبه بيضاء لامعة، ورفع رأسه مزمجرًا فازداد هلعه وتجمد مكانه. تقدم النمر تجاهه فخفق قلبه بشدة وفقد السيطرة على نفسه، تصبب عرقًا رغم البرد واقترب منه النمر ودار حوله، حينها بال على نفسه من شدة الخوف، حاول الوصول إلى سلاحه لكنه تركه بعيدًا عنه، بدأت حركة النمر الدائرية تتسع حوله ثم توقف أمامه ونظر إليه، استجمع المستجد شجاعته وصرخ فيه وأشاح بيده، لكن النمر انقض عليه وغرس أنيابه داخل كتفه، ومع ازدياد صراخ المستجد كان النمر يمزق كتفه وسط محاولة يائسة منه لردعه، وأثناء مقاومته وقعت يده على حجر صغير فأمسكه وضرب به النمر في رأسه، فأفلته ودار حوله مزمجرًا.

حاول التحرك لكن النمر وثب عليه ووضع قوائمه فوق صدره وزأر في وجهه بشدة انخلع معها قلبه، وللمرة الثانية فقد السيطرة على أعصابه وطفحت أعضاؤه بما بها. غرز النمر مخالبه داخل صدره فصرخ من شدة الألم، صرخ حتى انقطع صوته بالرغم من استمرار صراخه، ثم استسلم وأشاح بنظره جانبًا فوجد العريف جالسًا أمامه مبتسمًا في خبث وسخرية.

بكى وتأوه وازداد نحيبه، توقفت حركته فجأة وانقطع صوته، في هذه اللحظة كان النمر قد قضم رقبته حتى انخلعت في فمه فانفجر الدم بغزارة وقضى نحبه على الفور؛ حينها اختفى النمر للأبد!

عند شروق الشمس اقترب أحد الجنود ليتسلم البوابة، وجده ملقىً على الأرض مضرجًا بدمائه، ممزق الجسد، فصرخ من فوره مناديًا: حرس سلاح!.

تمت

كيفك إنتَ؟.. أحمد فضل

تنظر إليه.. ترمقه في صمت يقطعه صوت "فيروز" تشدو:

(كيفك إنتَ مَلّا إنتَ؟).

- عيناها تحملان ألف سؤال وسؤال.. لماذا؟!

هل يراها رخيصة إلى هذا الحدِّ؟! أم أنها تمثل له نزوة عابرة؟!

تمتص رحيق سيجارة من علبة تبْغِهِ الخاصة بنَهَم.. لتزفر بعدها الهواء ببطء؛ فيخرج مع الدخان كلّ ما يجيش في صدرها، ولا تجرؤ على التفوّه به!

قررت أن تستجمع شجاعتها، تميل نحوه، وبحروفٍ مضطربة لا تُعبِّر إطلاقًا عمَّا يعتمل بداخلها، تقول بنبرة- حاولتْ جعلها هادئة:

-أنت لا تكترث لأمري البتّة، أليس كذلك؟!

تضرب بعدها المنضدة أمامها بقبضتها، مائلةً بجسدها نحوه، وهي تصرخ بجنون:

-أليس كذلك؟!

تتطلع إليه...

لم ينبسْ بكلمة- كدأبِهِ دائمًا حين تُحدِّثه بأمر مهمٍّ...

كانت قد بدأت تشعر أنها بالنسبة إليه ذبابة لا أكثر!!

صارت مجرد مصدر إزعاج له!

كيف استطاع أن يتحوَّل هكذا؟!

بعد كل هذا الكمِّ الهائل من المشاعر بينهما يتنكر لها! يتهرَّب من مواجهتها!!
لقد قدمت له كل التضحيات الممكنة، وإن كانت على استعداد لتُقدِّمَ الأكثر- إن أُتيحت لها الفرصة، ولم يلفظها بتلك الفظاظة.

- بتذكّر آخر مرة شفتك سِنتا،بتذكّر وقت آخر كلمة قلتا!

فمنذ أن وقعت عيناها عليه في أول يوم لاستلام عمله كمدير لها؛ سَرَتْ رعشة في أوصالها حين لمست يدها يده دون قصد، وهي تسلمه أوراقه الخاصة بمهامِّ عمله..

نظرت له حينها بغضب، ظنًّا منها أنه تعمَّد ذلك، إلَّا أن أسلوبه الهادئ، ونظرته المطمئنة بدَّدَتْ كلّ ما شعرت به؛ ممَّا أورثها شعورًا بالارتباك، لم تدرِ سببه في حينها.

قطعه صوت رنين هاتفه المحمول بصوت "فيروز" العذب:

- (وما عدت شفتك، وهلَّأ شفتك، كيفك إنتَ ملَّا إنتَ)

لتظلَّ بعدها تتابعه بنظراتها في صمت، وتتعلل بكلّ الطرق لتخلق فرصة للحديث معه عن العمل؛ لتزيدها ردوده المنمّقة الواثقة تعلُّقًا به.

- (وما عدت شفتك، وهلَّأ شفتك)

حتى إن معظم زملائها قد لاحظوا تغيّرها المفاجئ، وملاحقتها له بالنظرات في كل صوْب!

تسمعهم يتهامسون، والنساء منهم يمصمصْن شفاهَهُنّ عجبًا من بنات آخر الزمان اللَّاتي يطاردن الرجال بدلًا من انتظار ابن الحلال الذي يطرق بابهنّ!

لكنها ألقت كلّ هذا وراء ظهرها، المهمّ أنه يحبها...

نعم، يحبها... فهي لم تنسْ أبدًا ذلك اليوم الممطر، حين كانت على وشك مغادرة مقر عملها لتجده يعرض عليها أن يُقلَّها بسيارته إلى منزلها؛ حماية لها في هذا الجوّ العاصف..

تعلَّلَ وقتها بأنَّ لديه عملًا ما، وأن منزلها في طريقه؛ فلا ضَيْرَ من ذلك.

تذكر جيّدًا أنه قام بإيصال هاتفه بمسجّل السيارة، ليدفئَ صوت "فيروز" العذب- الجوَّ القارص:

- (كيفك إنتَ ملّا إنتَ).

تسأله في حياء:

- أتعشق فيروز إلى هذا الحدّ؟!

- فيجيبها بابتسامة، ونبرة حانية:

- وكيف لا أعشق صوت فيروز؟! فهو الوحيد الذي خُلِقَ ليعشق الناس بعضهم بعضًا على نغماته في هذه الأجواء الباردة؛ فتدفأ القلوب بالقلوب!

- ابتسمت، وأخفتْ وجهها في نافذة السيارة:

تبًّا لهؤلاء الرجال!! تأبى كرامتهم دومًا الاعتراف بالحب مباشرة، لكنها تعرفهم جيّدًا وتعرف نواياهم!

قد يظنُّ البعض أنها عديمة الخبرة؛ لكنها مرت بتجربة سابقة قد..

عند تذكرها لتلك النقطة أفاقت من لحظات شرودها، والتي مرت عليها كدهرٍ كامل تتطلع إليه مرة أخرى!

تلك الملامح التي صارت تحفظها عن ظهر قلب: عيناه الواسعتان، شعره الناعم اللامع المصفّف دومًا بعناية، بعض التجاعيد التي وجدت طريقها لملامح وجهه، فهو يكبرها بخمسة عشر عامًا كاملة، إلّا أنها لم تشعر بذلك قطُّ.
تمدّ شوكتها في الطبق الموضوع أمامها لتلتقط منه قطعة لحم صغيرة، تُلقي بها في فمها الدقيق، وتلوكها ببطءٍ دون أن ترفع عينيها من على وجهه!
لم يعد للحديث بينهما مكان؛ لقد أصاب كرامتها كأنثى في مقتل، وهو أمرٌ لو كان يعلمه عظيمٌ!
لقد اقترف الخطيئة الكبرى بالنسبة لها... "الكذب"!
فبعد فترة من التعامل بينهما من خلال العمل، وتكرار إيصاله لها في مناسبات عدة- وبالطبع بعض المكالمات الهاتفية- سمعت من إحدى زميلاتها أنه متزوجٌ بأخرى!
- كيفك قال عم بيقولوا صار عندك ولاد، أنا والله كنت مفكّرتك برّات البلاد.
أخرى..؟! الخائن.. المخادع الذي ائتمنته على قلبها ومشاعرها، وهي التي كانت تغلق الباب في وجه مَن هم أفضل منه ماديًّا، وأكثر شبابًا! تجرَّأ، وكذب عليها!!
في ذلك اليوم طرقت باب مكتبه بعنف، وقبل أن يسمح لها بالدخول طلبت في عصبية التحدث معه، في أمر مهمّ- وسط دهشة بعض الحضور في مكتبه؛ فقد كان لديه اجتماع، وهي تعلم ذلك!
فأجابها في هدوء- محاولًا احتواء الموقف- أنه لا بأس، ولكن عقب الاجتماع مباشرة.

- لتضرب هي الأرض بقدمها كطفلة غاضبة قائلة في غلٍّ: بل الآن!!

- ليتنحنح هو في حرج محدِّثًا الحضور، مبتسمًا بلباقة:

يبدو أنه أمر مهمّ بالفعل؛ أستمحيكم عذرًا يا سادة، سأعود بعد دقائق.

- لتغادر هي المكتب وهو خلفها، وبمجرد دخولهما الغرفة المجاورة تلتفت له في سرعة، ملوِّحة بأصبعها السبّابة في وجهه، قائلة بغضب هائل: أنا أكره الكذب، أمقته، وأنت كذبت عليَّ!

- ليرفع حاجبيه في دهشة متسائلًا: أنا، أنا لم..

قاطعته، وقد اشتعلت عيناها من فرط الغضب:

- نعم، أنت.. أنت أخفيت عنِّي أنك متزوجٌ.. لماذا؟!

- تطلَّع إلى وجهها في صدمة!

- لتكمل هي:

كيف لم تخبرني بمثل هذا الأمر؟! أم أنك ظننت أنني دُمية تلهو بها كما تشاء؟! كيف استطعت خداعي كلّ تلك الفترة؟!

- أخذ ينظر إلى عينيها؛ ليتحقَّق من صحة ما يسمعه، ومدّ يده ليربِتَ على كتفها محاولًا تهدئتها؛ لتدفع يده بعنف ملوِّحةً بيدها قائلة:

- كفى خداعًا! لقد سئمت منك، جميعكم تنظرون للمرأة النظرة نفسها، لن أقبل بأيِّ أخرى في حياتي، وإن كان هناك خطأ، فهو خطؤك؛ أنك أخفيت عنّي الحقيقة!

- أجابها في خفوت؛ ليهدّئَ من ثورتها:

لم تأتِ الفرصة المناسبة للحديث في هذا الأمر.

صرخت في وجهه باستنكار:

- ماذا؟!

أشار لها لتخفض صوتها قائلًا:

- اهدئي؛ ليس هناك ما يستدعي كلّ ذلك.

- أجابته وقد تضاعفت ثورتها ألف مرة؛ وصار وجهها يحمل ملامح ألف شيطان:

كما قلت هذا خطؤك؛ أنت لم تخبرني؛ ولهذا لن أقبل بوجودها.. إمّا أنا، وإمّا هي؛ يجب أنْ تطلقها فورًا!

انفتح باب الغرفة ؛ليجدا زملاءها وقد ثار فضولهم، وجمعهم صوت صراخها الذي جاوز الغرفة؛ فنظر إليها بغضب شديد قائلًا: هل هذا ما تريدين؟!

أشاحت بوجهها، وهي تعقد حاجبيْها لتجيبه: لا يهمني!

- ليثور في وجهها قائلًا:

ليكن، هذا يهمني أنا، لقد سئمت كلّ هذا الهراء!

- استدارت له لتقول باستنكار:

سئمت مني؟! أبعد كل هذا مللت مني أنا؟!

- أكمل ثورته أمام الجميع- على غير العادة- صارخًا:

نعم، سئمت ومللت منك، ومن أفعالك؛ فلا يوجد أيّ شيءٍ بيننا غير العمل، العمل فقط!

- تراجعتْ للخلف، وهي تنظر له ولزملائها في صدمة:

ماذا تقول؟!

- أشار بيديه في الهواء- في إشارة بلا معنى- قائلًا وهو يزفر في توتر:

لقد سئمت كلّ شيء.. سئمت العمل، سئمت نظرات الناس لي بسببك، سئمت تهامسهم، والجميع يعلم أنه لا تربطني بك أية علاقة... بعض زملائك القدامي حذَّروني من حالتك النفسية، نتيجة علاقتك السابقة التي فشلت وانتهت بزواج خطيبك السابق بأقرب صديقاتك؛ لأنه سئم من حالتك المزاجية غير المستقرة، رغم شهادة الجميع له بالأخلاق، إلَّا أنه فضَّل الارتباط بصديقتك، من كثرة تطاولك، وعصبيتك!

- نظرت نحو الباب لزملائها مجتمعين لتجد فيهم من ينظر لها نظرة شفقة، ومنهم من ينظر بأسف، أو هكذا ظنت... تسمعه يكمل:

- لكنني آثرت بقاءك؛ حرصًا على حالتك النفسية، وكفاءتك في العمل، عندما علمت أنكِ تلقيت فترة علاج في إحدى المصحات النفسية، إلَّا أن الأمر زاد عن الحدِّ، فلم يكن هناك أبدًا أية علاقة تجمعنا سوى العمل، وكل ما أحمله تجاهك من مشاعر، أو تصرفات هو من باب الزمالة لا أكثر، ولا أقل!

- أجابته وهي تشعر بأن أرض الغرفة تدور بها:

أتعني أنك..؟!

- قاطعها هو هذه المرة قائلًا في حسم:

أعني أنني أحب زوجتي، وأسرتي، ولا أقحمهم في عملي، كما أنني لن أتحمل إرهاصات خيالك المريض بعد ذلك!

- نظرت له نظرة خاوية دون أن تجيب.

- فتابع هو:

يمكنك اعتبار نفسك في إجازة مفتوحة لحين استقرار حالتك، وسأوصي لك بنفسي بأحد الأطباء لمتابعة حالتك!

أدار وجهه ناحية الجمع المشاهد قائلًا:

لقد انتهت الفقرة المسرحية أيها السادة الأفاضل؛ ليعُدْ كلٌّ منكم إلى عمله، وغير مسموح بالتحدث عمَّا حدث مع أيِّ مخلوق!

- يصل لأذنيها صوت أحد زملائها مخاطبًا آخر قائلًا:

معه حق بكل تأكيد، لكنه كان قاسيًا جِدًّا في مواجهتها!

- فيجيبه زميله:

هذا أفضل لها؛ حتى تفيق من أوهامها!

كلُّ ذلك مَرّ أمام عينيها في لحظات معدودة، وهي تتطلع لملامحه..تَذكر خروجها ذلك اليوم من عملها، وهي تشعر بنظرات الجميع كالرماح تخترق ظهرها لتنفذ من صدرها، وتقتلع قلبها من مكانه، ولا تدري إلى أين تذهب! لتتوقف قليلًا، وتحسم أمرها، وتختفي عن أنظار الجميع!

حتى ذلك اليوم الذي راقبت فيه منزله من بعيد، وهي ترتدي نظارتها الشمسية السوداء، تلك التي تخفي ملامح وجهها.. فقد علمت بسفر زوجته بصحبة أولاده عن طريق أحد زملائهم في العمل؛ لتقديم واجب العزاء في أحد أقاربها.. لتطرق باب شقته بعدها، وعندما فتح الباب، ووجدها أمامه- ارتسمت على وجهه آثار الدهشة؛ فأجابته قبل أن يتساءل عن سبب حضورها:

- أعلم أن حضوري إلى هنا خطأ جمٌّ، ولكني لم أستطع ممارسة حياتي بعد كل ما سبَّبْتُهُ لك من أذًى نفسيٍّ؛ فجئت لك لأعتذر منك، وأتمنى أن تسامحني!

ودون أية كلمة استدارت لتهبط، وقبل أن تكمل بضع خطوات سقطت مغشيًّا عليها؛ ليحملها هو في رفق ويدخلها، ويضعها على الأريكة، ويذهب ليحضر عطرًا وبعض الماء محاولًا إفاقتها ليجدها غير موجودة!! وقبل أن يبحث عنها.. شعر بوجود شخص ما خلفه، يهوي على رأسه بإحدى التحف الثقيلة في شقته؛ وتظلم الدنيا أمام عينيه!!!

سالت عبرة من عينيها وهي تنظر له.. وقد وضعته أمامها على المقعد المقابل لها على المنضدة التي أشعلت شموعها؛ لتضفي جوًّا من الرومانسية الحالمة مع صوت "فيروز" المنبعث من هاتفها المحمول، فقد صارت تعشق تلك الأغنية، بل تعيشها:

بيطلع عبالي

ارجع أنا ويَّاك

إنتَ حلالي

ارجع أنا ويَّاك

أنا وإنتَ ملّا إنتَ

وأخذت تعبث في طبقها بإصبعها، وتلعق بلسانها ما علق به مرددة في خفوت:

ـ سأغفر لك زلتك.. لكني لن أتركك لغيري أبدًا.. أتفهم ذلك؟!

رفعت عينيها لتنظر في عينيه للمرة الأخيرة، وقد أمست عيناه خاويتين من الحياة، وخيوط من الدماء تسيل من رأسه على وجهه.. لتكمل في خفوت، وصوت فيروز لا زال يشدو خلفها:

- (كيفك إنتَ ملّا إنتَ؟)

- لكن العدل أن العين بالعين؛ لذا كما مزقت قلبي- استحققت تمزيق قلبك!

وأشارت لذلك الجزء الخاوي من صدر جثته الغارق بالدماء في موضع القلب تمامًا!!

لتأخذ بشوكتها آخر قطعة من قلبه المطهو في الطبق أمامها.. تمضغها في بطء: كيفك إنتَ ملا إنتَ؟!!!

تمت

النافذة.. إيمان وحيد

صديقتها الوحيدة

معبرها الوحيد إلى الحياة.. كانت تدرك ذلك.. تعلمته منذ أن كانت صغيرة..على الكرسي نفسه جلست تراقب الأطفال الصغار..تتمنى أن تلعب معهم.. تتمنى أن تعبر النافذة لتخبرهم أنها مثلهم طفلة! بالمساء كانت تراهم يرحلون؛ فتقرر أن ترحل هي أيضًا إلى عالم الأحلام!

ذلك العالم الذي يهديها قدميْن تستطيعان اللّعب..شمس، ونهار دائمان..أطفال لا يملون الضحك، وتقاذف الكرات.. تتمنى ألا تفيق.. لكن النهار يأتي، فتعود.

ذات يوم قدم إلى عالمها زائر جديد.. طفلة بمثل عمرها، أو تزيد.. لم يكن يعنيها العمر.. كلّ ما يعنيها أنها تزورها، وتشاركها عالمها.

تحضر معها كرة صغيرة، وكتابًا.. علمتها أن الكرة لا تحتاج إلى قدميْن..الكرة تحتاج إلى شريكيْن.

صارت تقاذفها الكرة، فتشتعل الضحكات.. علمتها الأحرف..قرأت لها وعلّمتها القراءة..غيّرت عالم الأحلام، فصار واقعًا.. وكبرتا.. لتختفي الكرة.. وتبقى أحاديث الكتب، والروايات.. صارت نافذتها المفضّلة هي التي تشرق منها شمسُ صديقَتِها كلّ صباح، فإذا جَنَّ الليل سألت نافذتها:

ترى متى يأتي الصباح؟!

كانت تظنُّ أنهما لن تفترقا؛ لكن العمر يمرّ، والصغير يكبر.. ها هي قد تزوجت.. ها هي قد رحلت؛ لتعود لنافذتها- صديقتها الأولى- معبرها إلى الحياة.

تمت

هي السبب؛ هي من علّمته حبّ المطر!

هي من أخذت بيده أول مرة، وأقنعته بالنهوض من أسفل أغطيته الكثيفة!

هي من جعلته يتنصَّل لفضلِ كوب الشكولاتة الساخن.. ذلك النخاع السائل الذي يسري في مثل هذا الطقس من الفم للعروق مباشرة دون هضم، أو امتصاص!

كانا يقفان معًا تحت الحبيبات المتساقطة.. وجهها الأبيض يزداد لمعانه، فيُشعّ نورًا.. شعرها البُنِّيُّ القاتم يصير ليلًا حالكًا ملتصقًا بوجهها في لوحة نادرة... آه لو كان يجيد الرسم!!

تلك الأمطار التي كانت تحتوي جسدها لتصفه أسفل الثياب؛ فيدير وجهه ليس تأدبًا- فلم يكن يومًا بهذا الأدب- ولكن مَن يجرؤ أن يكشف ستر الملائكة؟!

تمسك إحدى يديه بيدٍ، وتفرد الأخرى بأقصى ما فيها.. كأنها ستحلق بين زخّات المطر!

في البداية كان سكان شارعنا الصغير يتعجبون من هذا المشهد، يسخرون ويتلمّزون علينا، لكنه لم يلبث أن أصبح أمرًا معتادًا.. تكملة لمشهد المطر نحن أسفل القطرات المتساقطة في عالمنا الخاص، بينما تدور الرحى بمن حولنا!

أسمع بائع (الروبابيكيا) ينادي على بضاعته منَغِّمًا صوتَهُ، وتصرّ أستاذة "إجلال" على أن أحد الطلبة لم يدفع مصاريف الدرس، وأنها "لا تفتحها

تِكِيّة"!

بينما "أم أحمد" تجري وراء أصغر أبنائها لتمنعه من اللعب مع الصبية- فلديه واجب عليه إنجازه- يعود معها متبرِّمًا؛ لتطرُدَه هي إلى ملعب الشارع بعدها بعشر دقائق على الأكثر.. عندما يكسر أول إناء يجده أمامه!

الفتي يدمِّرُ آنيةَ والدته بشراهة تؤكد أنه فَهِمَ اللعبة.. لو اتّجه لـ(النيش) سيأمن وجوده بالشارع لدهرٍ كاملٍ!

كنت أنا من يلاحظ كلَّ هذا، وينشغل به، أما هي فكانت تناجي دموع السماء.. المطر الذي طمع فيها، فاختطفها.. بَخِلَ بها عليّ، فآثر أن يجعلها لنفسه.

تحدثت لأهلها؛ فوضعت أمها الشروط من نوعية: عدد الغرف، ونوع الأثاث،... وكل هذا الهراء الفارغ. إن بيتنا تحت المطر، لماذا تريدين أثاثًا؟!

أخبرتهم: أني سأحاول.. سأبذل جهدي، ولكنها كانت تعنى عند والدتها أنى غير قادر، أو مؤهّل لأكون رَبّ أسرة كما قالت.

أبعدتها عنّي، ونَدَرَتْ مرّات رؤيتي لها.. أراها فقط عندما ألحق بها أسفل الماء المنساب؛ فتتشابك إحدى يدينا، وتسافر الأخرى لتعانق العالم!

كنت أخشى الصيف؛ سيعنى هذا ألّا أراها أبدًا!

لكن الفراق كان أقرب.. في ذلك اليوم المشؤوم، بكت السماء كما لم تَبْكِ من قبل.. زخّات قوية كاسحة!

جمع الباعة أشياءهم، ولملمتِ الأمهات صغارها.

كنت أعرف أنها ستنزل؛ فسبقتها.. السماء تناديها وصوتها أعلى من كلِّ مرة.. لا يمكنها أن تعيدها خائبة.. لكن كان لوالدتها رأيٌ آخرُ!

ضجّت بلقاءات المطر، وخشيت عليها من المرض- كما قالت-، فمنعتها.. أوصدت عليها الأبواب..

لم تكن تعرف أنها روح حرة؛ والقضبان تقتلها!

هُرِعَتْ للشرفة، أشارت لي بابتسامة حزينة، نظرت إليها، فإذا بالماء يتساقط من بريق عينيها؛ لم أدْرِ، هل ما أقف أسفله هي دموع السماء. أم دموعها هي؟!

ارتشفت قطرة من الماء، ما زال عذبًا.. دموعك لم تَقْوَ على تغييره، غاليتي!

تركت المطر، وتعلقت عيناي بها.. تفتح كلتا يديها، تمدّ جسدها كلّه للأمام لتشعر بدموع السماء تخالط أمطارها! للحظة ظننتها حققت حلمها الأثير وأنها تحلق، أنها أعلنت أخيرًا حقيقتها كملاكٍ حقيقيٍّ نَبَتَ له جناحان؛ فطار فوقي!

ابتسمت لها بحنان، لكن ابتسامتي تجمّدت، وعدت لأرض الواقع عندما سمعت الصراخ من حولي، ورأيتها على الأرض غارقة في اللون الأحمر القاني.. لحظات قبل أن تعمل صديقتها الأثيرة على غسله، وإزاحته جانبًا!

جريت عليها، لكني كنت أعرف الحقيقة قبل أن أصل.. لقد سرقها المطر مني؛ كان يهواها مثلي، لكنه أقوى وأكثر تمرُّدًا، فخطفها إليه!

الأغبياء لم يفهموا هذا؛ بعضهم قال: سقطت، وبعضهم قال: انتحرت.

كل هذا هراء؛ لقد سُرقت.. اختُطِفَتْ، لكنْ لن يقبلَ ضابطٌ واحدٌ أن يخطَّ لي محضرًا بالواقعة.

من يومها، لم أعد أنزل للمطر؛ لن أجعل غريمي يُمَنِّي نفسه برؤية نظراتي الساهمة، ولا دموعي المتساقطة، لن أجعله يشمت بى! لقد فاز نعم، لكني سأواجه هزيمتي كرجل.. رجل فقد كل شيء في لحظات مطر!

السلام، الاطمئنان، المحبة، وغيرها من تلك الفضائل هي ما ستفكر فيه عندما أخبرك بأنني من سكان قرية ريفية، لكن في قريتي لا شيءَ من هذا موجود؛ فالخوف احتلّ قلوبنا بعد أن قتل السلام الذي سالت دماؤه رعبًا في عروقنا!
أحلامنا بسيطة، نتمنى أن نغلق عيوننا، وننام دون خوف، لكن كيف يحدث ذلك مع تلك الأصوات المدَوِّية التي تقشعرّ لها الأبدان؟!
أدعي "سعيدًا"، لكنّ حالي ليست كذلك؛ فالحزن والخوف يسيطران عليَّ وعلى كل أهل القرية، لا سبيل للراحة إلَّا بالنوم، ولا نومَ يمكن أن يطأ أجسادنا إلَّا بانهيارها، أو بنوْم تلك الأصوات، وهدوء تلك الوحوش!
أصوات بدأت منذ ثلاثة أشهر، ومع ذلك لم نعتدْ عليها، صوت نباح مفزع يخترق الأذن، ويحيط بالقلب، فيجعله يرتعش، كنا مُوقنين بأن المحال هو أن تكون تلك الأصوات لمخلوقات عادية، كلّ ما أمكننا تحديده أن الأصوات تبدأ بالليل.. ورغم أنها مسموعة في كلِّ اتجاه، لكنَّ مصدرها واحد هو بيت المشتري الذي قدم إلينا منذ خمسة أشهر، واشترى قطعة أرض كبيرة بنى فيها بيتًا عملاقًا، أحاطه بسور مرتفع؛ لا تدري أبصارنا ما وراءه!
حاول بكلِّ وسيلة شراء الأراضي- وسط رفض قاطع من أصحابها الذين لا يملكون سواها.. عرض النقود التي لم تغرِ أهل القرية القانعين بمعيشتهم..

عرض أراضِيَ بديلة، لكنهم رفضوا عرضه؛ فانتماؤهم للأرض كان أكبر من أن يستبدل!

بدأ في اغتصاب الأرض؛ لكن الأهالي تصَدّوْا له بالقوة بعد ما أظهر نفوذه التي منعت الشرطة من التدخل، وبدأ شَرّه الجهنّميّ يتعالى مع بدئه في جمع الكلاب الضالة في قريتنا، والقرى المجاورة!

قال جارنا في استخفاف أثناء تجمعنا: ربما يحب طعمها، فأنا أعلم أنه في هذا الزمان الكلاب تأكل بعضها!

ضحكنا على كلماته، لكني أعلم الآن أنه لا يمكن لصوت الكلاب أن يقودك للجنون، أن يجعلك تمزق وجهك بتلك الأظافر، أن تصرخ ومَنْ بجانبك منبطح لا يستطيع مساعدتك، لا تظن أنني أتخيل؛ فهذا ما حدث لأمي أمام عيني دون حول لي أو قوة!

حاول في الصباح بضعة رجال الذهاب لقصره لكنهم لم يعودوا!

بدأ الليل، وبدأ العواء والنباح، بدأنا في ضرب أدمغتنا بالحوائط.. كنا نسمعذ أصوات مخالب تنهش الأرض أثناء سيرها، وأصوات زمجرة تتنفس وتمرُّ بجانب بيوتنا، والخوف يغازل أرواحنا، دماؤنا ملأت الأرض حتى فقدنا الوعي مجدّدًا!

استيقظنا على فقدان بعض الجيران للحياة، كان أحدهم جارنا الفقير صاحب البيت المهترئ الذي يداري باب عشته التي يسكنها بالبوص، وجدناه في الصباح ممزقًا، وجدنا ما تبقَّى من جثته، فجمجمته مفصولة عن جسده الذي لم يبقَ فيه جلد أو لحم! كل ما بقي عظام تتعفّف ببقايا لحم ملتصق بها يجذب

الذباب، وأحد فخذيه اختفت، والدماء تملأ مكانه، وتلطخ كل جزء فيه، وآثار مخالب عملاقة نبشت الأرض؛ فصار من السهل التنبُّه لها!

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة؛ فقد تكرر الأمر حتى قتل عشرة أشخاص! كبر عدد القتلى، ومعه شراسة الهجوم، والخوف يزداد، ويدفع البعض للخروج من القرية هربًا بحياتهم إلى المجهول!

بدأت القرية في الخُلُوِّ شيئًا فشيئًا، بعد أن أصبح لكلّ بيت دورُهُ في الهجوم، واليوم أصبح دوريًّا.

وسط الخوف نفسه الذي يجعل أعصاب الشجعان تنساب كما تنساب حبات الرمل من بين أصابعك، سرى الخوف في أجسادنا، ودخل في صراع مع أرواحنا! ظننت أن قلبي وصل للحلقوم.. الصمت الخانق الذي تخترقه بعض زمجرات الليل، شَخْولة المخالب على بابنا كانت تهتف بالموت، لا مهرب لنا، وضعت يدي علي فمي أكتم أنفاسي، وأنا أختبئ تحت الطاولة، بدأت الزمجرة في العلوّ، وتحولت الشخولة إلى ضربات قوية هزَّتِ الباب ومعه قلوبنا.. بدأ بابنا الخشبيّ في التكسُّر، سمعنا صوت تقصّف الأخشاب، واستطاعت دموعي منع عيني من رؤية القادم الذي أثق في أنه الأسوأ!

استطعت أن أزيل دموعي لأراه، اندفع من الباب محطّمًا ما تبقّى منه، بالتأكيد لم يكن كلبًا، فأيّ كلب يمكن أن يبلغ حجمه حجم الثور! كان له عرف كعرف الذئاب، فروه لامع، وعيناه حمراوان كأنهما احتجزتا الجحيم بداخلهما!

ما زال رشيقًا ليقفز فوق الطاولة، تخترق مخالبه خشب الطاولة، يسيل من فمه لعابٌ لَزِج.. يسقط بعضه على الأرض بجانبي، استطعت أن أشمَّه، كانت

رائحته كريهة كأقذر شيءٍ شممته في حياتي! أرادت معدتي التقيّؤ لكن لا شيء فيها حتى تتقيَّأه، كادت روحي أن تخرج أثناء حركة معدتي اللّا إرادية!
بدأت الطاولة في التكسّر، حاولت تمالك نفسي لأخرج زحفًا، أنتفض لأجرِيَ؛ لكنْ لم يكن لديَّ وقت.. فقد قفز، وأمسك بساقي بين مخالبه، صرخت بعلوّ صوتي للدرجة التي أراهن أنَّ مَنْ في القرى المجاورة سمعوا صراخي!!
شعرت بأنيابه تُغرس في ساقي التي سحب بها جسدي؛ ليلقيه إلى الجانب الآخر من البيت بقوة جعلت جسدي يسقط على أحد الحوائط.. شعرت بتحطم ضلوعي، نظرت لقدمي التي اصطبغت بالدماء التي تتدفق من حفر الأسنان التي صنعت فجوات في قدمي، فأصبحت قطعة لحم متدلية من ساقي!
نظرت للوحش الذي كان يقترب.. كلب مستذئب يزمجر؛ فتظهر أنيابه البيضاء في وسط فروة الأسود.. كانت تشبه القمر في وسط الليل!!
يقترب مني؛ وتقترب روحي من الزوال.. عندما تتحرك عيني فيظهر بياضهما أثناء غرق عدستيهما إلي داخلي، لم يُعِدْهما لوضعهما الطبيعي إلَّا صوت العيار الناري الذي أتى من الخارج، أصاب الكلب المستذئب؛ لكنه لم يؤثر فيه قيد أنملة.. تحرك تجاه الباب؛ وتحركت رأسي بصعوبة لألمح أحد جيراننا الشجعان يحمل بندقيته.. كان أحد جنودنا الأبطال.. خيَّال القرية ورمز صمودها، واسمه "خيَّال" لبراعته في امتطاء الخيل.
كان يحمل بندقيته التي تلمع في الظلام كما تلمع النجوم في السماء.. قفز الكلب المستذئب عليه؛ خدش صدره بمخالبه التي اخترقت ملابسه ولحمه، كان

يبعده باستخدام بندقيته التي وضعها في فم الوحش، كان يدفعه لكن قوة الوحش كانت ترجعه للخلف، كانت قدماه تحتكّان بالأرض وتحرثها، وهو في هذه الحالة نظر إليّ، وقال بعُلُوِّ صوته: اهرب بسرعة!!

استجمعت ما تبقَّى من قوايَ الخائرة لأزحف على الأرض، أجرّ قدمَيّ العاجزتين اللتين تحتكان بالأرض؛ فتصنعان خطًّا من الدماء! كان يفصلني عن جيش جرَّار من الكلاب المهجَّنة سورٌ ضخمٌ من النيران التي تحيط بعدة منازل؛ تقف أمامها الكلاب عاجزة لا تستطيع التقدم.

علمت أن جارنا الخيَّال هو مَنْ أشعلها باستخدام قشّ الأرز الموجود في الأرض من حولنا، سمعت صوت عيار ناري آخر؛ نظرت خلفي، كان جارنا قد أقحم بندقيته في جوف الكلب الذي يصارعه، أطلق عدَّة طلقات جعلت جسد الكلب يسقط من فوره.. كان يخرجُ من جسده الذي ينتفض وقوائمه التي تفرك في الأرض- سيلٌ من الدماء، توقف وتوقفت معه حركته، وأصبح جُثة هامدة.

عوت الكلاب المهجَّنة، وأصبنا بحالة الجنون، إلَّا أن ضوء الفجر الساطع جعلها تصمت، وتعود من حيث أتت إلى هذا القصر الملعون!

قام جارنا الخيَّال بمساعدتي على النهوض، لم أستطع؛ فقام بحملي على كتفه، خرجت أمي من مخبئها وتبعتنا.. دخل بنا لمنزله ذي الباب الحديدي، كانت آثار المخالب عليه هي كل ما أمكن للكلاب فعله به.

دخلت المنزل، وكانت مفاجأة أكبر من بقائي حيًّا، كان شخصًا مشوَّهًا.. علمته من صوته، كان أحد رجال القرية الذين دخلوا القصر، قال لي السِّرّ الذي فعل

الرجل كل ذلك لأجله؛ أراد قريتنا النائية والخصبة؛ كي يحولها لزراعة المخدرات المَخْفِيّة وسط الزراعات الطبيعية! كانت قريتنا هي المكان المناسب لذلك.. أخبرني بتظاهره بالموت، ودخوله للبيت أثناء هجوم الكلاب، وجد ملاذًا آمنًا، واختار الوقت المناسب للهرب؛ حتى عثر عليه الخيَّال، الذي أرسل الخبر لجميع أهل القرية كي يعودوا.

عالج الخيَّال جروحنا الغائرة بقدر استطاعته، بالقدر الذي أبقانا على قيد الحياة.

عندما بدأ الليل- بدأ توافد جمع من الأهالي من الهاربين، يحملون شُعَلَ النيران، ومعهم أسلحة نارية، ساعدونا في الذهاب معهم أثناء توجههم للقصر، ألقوا الشعل النارية؛ فبدأ القصر في الاشتعال، أطلقوا أعيرة نارية على كل ما يخرج من هذا الجحيم، ظنًّا منهم أن طلقاتهم ستقتل أرواح تلك المخلوقات الملعونة، كانت صرخات العذاب تنبعث من ذلك المكان، فتزلزل أقدامنا وقلوبنا، أصبح القصر كومة رماد، وقبرًا لتلك الأرواح مع مَنْ صنعها.. هدأ الوضع؛ ولكن بقيت عيوننا لا تنام؛ تنتظر كابوسًا أعظم لمملكة أخرى!!

تمت

اكتمال.. مقبولة ابريه

وقف مأخوذًا بحُسْنِها البَيِّن، مشدوهًا بتفاصيلها الصغيرة، وكنسمةٍ عابرةٍ، مضت في طريقها غير أبهةٍ بما خلّفته وراءها..

ابتعدت أمتارًا قليلة ليدرك أنّ عليه أن يبادر، ألَّا يقبل بانتهاء لقائهما الأول بهذه الطريقة، كان متيقنًا أن كليهما يستحق فرصة.

اختلج خافقُهُ، وازدادت سرعة أنفاسه، اختلطت مشاعره، وسرت في جسده تلك الرعشة المحبَّبة التي تجتاحه لمجرد التفكير في القادم.. سار يتعقبها وقد اختفت الأصوات، وفَنِيَ الناس من الوجود حوله، فلم يبقَ في هذا العالم غيرهما.. تردّد في رأسه ذاك السؤال: أيهما أبهج للنفس، الوصول إلى المبتغى، أم الطريق إليه؟ لو سُئِلَ هو- لما اختار بينهما؛ لكلٍّ منهما مذاقٌ يعشقه!

لم يكن الوصول إليها سهلًا، لم يزعجه هذا أيضًا؛ فهو يعلم أنه كلما اجتهد المرء- كان نجاحه باهرًا، ولن تجد هي في حياتها شخصًا متفهّمًا مثله.. تعمّد ترك مسافة كافية بينهما تجعلها في مرمى بصره، بحيث لا يكون أقرب إليها أكثر ممّا يجب وسط هذا الزحام، ولا تضيع هي منه؛ فيذوق مرارة الفقد وطعم الخسارة اللذين يمقتهما؛ لما يفعلانه به من حالة نفسية سيئة!

وقفت مرة أخرى أمام واجهة محل يعرض مصوغات ذهبية.. ابتسم وهو يتخيَّلها تكتشف هديته التي سيفاجئها بها، كلّ الذهب المعروض أمامها الآن لا يساوي ما سيقدمه لها، هديته فريدة ستفرقها عن باقي النساء، ستجعلنهن

يتميَّزن غيرة وحقدًا من غزالته الشاردة؛ ابتهج واتسعت ابتسامته أكثر للاسم الذي وجده يليق بها!

دقائق قليلة ويرخي الليل سدوله، وفرصة اللقاء لمّا تحنْ بعد.. اشتد عزمه على أن يتصرف.. وبين قرار وفعل- وقفت قرب ناصية الشارع تسلم على فتاتين، وتبادلهما حديثًا سيطول على ما يبدو.. احتاج أن يضبط أعصابه، تمنّى لو يسدد قبضته لأحدٍ ما؛ ليخفِّفَ من غضب أحس جَذْوته تشتعل بداخله، هرب إلى موقف السيارات حيث ركن خاصته، تنفَّس بداخلها عميقًا وهو يطمئن نفسه أن الأوان لم يفت بعد. بينما كان ضوء النهار يحتضر مودّعًا- تسابقت أنوار الشارع تتلألأ مستعجلة رحيله..

أسيرٌ لإحساسه الشديد بأن القصة لم تنتهِ، مرّ بسيارته غير بعيد من آخر مكان تركها فيه.. ولدهشته رآها تودِّع رفيقتيْها قبل أن تسلم نفسها لزقاق جانبي يحفظ مداخله عن ظهر قلب.. أسرع إلى تغيير مساره، وكل أجزاء الصورة جليّة أمامه..

لم يخطئ حَدْسَهُ يومًا، ها هي تستجيب، وترتمي بين ذراعيه.. ما إن عانقها من الخلف- سيكون صادقًا، ويعترف بأن عطر منديله ساهم في ذلك، ما إن وضعه على أنفها؛ لكنه متأكد من أنها لو استمعت لعرضه ما كانت لترفضه، ومتأكد أكثر من أنها ما كانت لتقاوم جاذبيته، صحيح أنها قرب ذاك المتجر حيث التقيا بالكاد نظرت إليه، إلَّا أنه يعلم أنها تصرفت بدلال يفهمه، ويتفهمه!

ليلتهما ستكون طويلة، وستخلد بذاكرتيهما، فكر وسيارته تشقّ طريقها خارج

المدينة، إلى البيت الذي لن يقاطعهما فيه أحد، إلى حيث سيقدم هديته النفيسة..

نظر إليها عبر المرآة العاكسة، جميلته لا تزال نائمة.

ضايقه وهو يتفقد عدّته شدّة البرد هذه الليلة؛ لكنه يعلم أن هذا الإحساس يستنفر حواسّه، ويجعله يقظًا أكثر، هذا البيت يحتاج إلى إصلاحات كثيرة، فصاحبه على ما يبدو استنزفه كِبَرُ مساحته، وأنهكه بعده عن المدينة، فتركه لسنوات هكذا..

أما هو، فيدرك القيمة العظيمة للنقصان، وهذا ما يجعل من هذا المبنى مغارته الآمنة، التي لا يتجرّأ أحد على الاقتراب منها!

تأمل ملامحها المتناسقة، ساءه أن الكحل في عينيها العسليتين سال تحتهما، بقطنٍ معقّم مسح تحت العين اليمنى، رسم خطًّا مقوّسًا يحيط بمحجرها، بيد ثابتة أمسك مشرطًا حادًّا، وبتركيز فنان شغوف شرع في اقتلاع جوهرته الثمينة!

الريح تعزف سيمفونيتها المحببة لقلبه، السكون حوله لا تكسره إلا تأوّهات جميلته النائمة، فيسرع إلى وخزها بإبره المصطفّة قربه، يواسيها حينًا، ويؤكد لها أن المهم هو النتيجة التي ستبهرها، وستعرفها أن النقص معنًى عظيم من معاني الجمال.. يخبرها بأنه سامحها إذ أشاحت بوجهها عنه.. يسامح ويتفهم.

بالزقاق الجانبي، حيث كان لقاؤهما حقيقيًّا- تركها.. وقبل أن ينازع النور الظلام مجدّدًا، أدار محرك سيارته وقد أنهكه تعب ليلة من العمل الطويل، لا يخفف من حِدَّته إلّا سعادته بجوهرته الثمينة التي سيخبئها بعيدًا عن أعين المتلصصين.. حيث يليق بها!!

ثلاثون عامًا مضت منذ غادر قريته، لا يحمل إلا جواز سفر وضع فيه أربعة وعشرين عامًا مضت من حياته، وبضع وريقات نقدية، كأنما أبى أن يحمل معه شيئًا سوى تلك الذكريات التي سافر ليطويها النسيان، طافت أمام عينيه ذكريات رحلته الأولى، هارب يتنقل من بلد إلى بلد تحت هويات وأسماء مزيفة، لا يعرف الخوف إلى قلبه طريقًا، فما تركه خلف ظهره جعل ماضي الأيام وحاضرها- جميعهم فى قلبه سواء!

سنة وثلاثة أشهر تنقل فيها من منتصف الأرض إلى أقصاها، حتى استقر به المقام أخيرًا فى "الولايات المتحدة الأمريكية".. أرض الأحلام لكل باحث عن حلمه، وأرض المنفى لكل هارب من حلمه!

ثلاثون عامًا مضت، وها هو يستقلّ الطائرة عائدًا إلى وطنه الذي نُفي منه، عاد يحمل اسمه، ولقب تفخيم خلفه أو بعده، لقبًا منحته له الأموال التي أفنى عمره فى جمعها، عاد وعادت معه كلّ الذكريات التى جاهد سنوات عمره ليمحوها، فقط حين لاحت معالم الطريق أمامه من نافذة الطائرة.

"عبقرينو" كما كان يناديه أبناء الحيّ الذى تربَّى فيه، يتيم الأب، سرعان ما أصبح يتيم الأم حين حصل على شهادة الدبلوم الفني، كأن أمه تقول له قبل أن ترحل: لقد أكملت بك إلى آخر جهدي؛ أكمل طريقك وحدك!

يتيم لم تنجرف قدماه إلى هاوية الضياع؛ فأكمل يشق طريقه، ويعلم نفسه بنفسه مستغلًا نبوغه فى مجال الإلكترونيات؛ حتى استحق ذلك اللقب الذي منحه له أهل حيّه!

لقب أغناه عن أصل لا يعرفه، وعائلة لا يعرفها أحد- حتى هو- حتى ظن أنه أمر لا قيمة له، عاش أربعة وعشرين عامًا يحبه الناس، حتى أحب وعرف العشق الطريق إلى قلبه؛ فواجهه أبوها بتلك الحقيقة التى زلزلت كيانه كله، ونزعت عنه سلامه وهدوء نفسه؛ فأصبح لا يعرفها كلّما نظر إلى المرآة!

لاحت كل تلك الذكريات أمامه حين وقف على أول الشارع الذي قضى فيه شطر عمره.. يحبه الناس.. "ولكن لن نعطيك بناتنا"، "نحبك لكنك أبدًا لن تكون واحدًا منا"،" نثق فيك إلى الحد الذى تُصلح فيه التالف من أجهزتنا وأدواتنا، لكن أبدًا لن نعطيك الصالح من بناتنا لتتلف على يديك"!

تغيّر الحيُّ كثيرًا، تغيّرتِ القرية كلّها؛ فأضحت مدينة تعجّ بالبنايات المرتفعة، اختفت معالم شوارعها وحوانيتها القديمة، تغيّرت وسكن الأغراب في أزِقّتها وحواريها، ولكن تُرَى، هل ما زالت البقية الباقية من أهل قريته ينظرون إليهم، ويسمّونهم غرباء لا أصل لهم؟!

هناك عند ناصية الطريق، وقفت بناية مرتفعة تحتلّ تلك الزاوية، حيث كان يعيش مع أمه، وحيث كان يقف فى دكانه الصغير لتصليح الإلكترونيات، منزل قديم متداعي الأركان، ولكنه كان ملكًا له ولأمه، نبتت مكانه تلك البناية الفاخرة، من اشترى، ومن باع؟!

لم يقف كثيرًا عند حقٍّ سلبَهُ أحدُهُم.. لو شاء الآن لاستردّه، بل تحرك نظره إلى منزلها ذلك الذى وقف يصارع الزمن، تحرّك تجاه منزلها، لم يلتفت للقديم، أو الجديد الذى أحاط منزلها، فقط دلف من بوابته الخشبية القديمة.. صعد إلى باب شقتها، طرقات بسيطة.. لم يمضِ عليه كثيرٌ حتى كانت هي من فتحت الباب له، لم تتغيّر، ذات العينين اللّتين أسرتاه، وكانتا سببًا فى كل ما حدث له.. عرفته من أول نظرة برغم أن سنوات الشقاء نحتت فى ملامحه، وغيرت فيها الكثير!

استقبلته في غرفة الصالون القديمة التي لم تتغير منذ ثلاثين عامًا، جلس إلى المقعد نفسه حين دخل منزلها للمرة الوحيدة حين واجهه أبوها بحقيقته التي كان يحيا بدونها: "لا أصل لك"!

أعدّتْ له فنجانًا من القهوة، وضعته أمامه، وجلست إلى المقعد نفسه، حيث كان يجلس والدها..

تناول القهوة، يرشف منها ببطء، وعيناه لا تغادرانها، وهى الأخرى لم تُسْقِطْ عينيها عنه، جلس صامتًا فى حضرة الأرملة الصامتة، وضع فنجانه، ورحل دون أن ينطق بكلمة، وهى أيضا لم تنطق.

أسبوع مضى منذ كان فى بيتها حتى صارت هي فى بيته وزوجة له.. زوجة أحبها، وحمل حبها ثلاثين عامًا قضاها جاهدًا لينسى، ولم ينسَ!

- ثلاثون عامًا جاهدتُّ لأنساكِ!
- عانيتَ الكثير فى سفرك؟
- كان عنائي فى محاولة نسيانك!

- وأنا أيضا لم أنسَ!

- لم تتزوجي بعده؟

- قتله حاقد فى ليلة عرسي، فأمسيتُ أرملة راهبة منذ هذه الليلة!

- سافرت، لم أتحمل أن أراكِ فى ثوب الزفاف زوجة لغيري!

- قضيت شهرًا غائبة عن الوعي بعد ما قُتل زوجى، وحين أفقت علمت أنك سافرت، وغبت عن الحَيّ فى الليلة نفسها.

- كنتِ تحبينه؟

- نعم.

- للحدّ الذى جعلكِ لا تتزوجين بعده؟!

- أقسمت ألّا أتزوج حتى أقتلَ مَنْ قتله!

- تعرفينه؟

- نعم.

- قبلتِ الزواج مني؟

- أعلم أنكَ كنت تحبني.

- ولا أزالُ أحبكِ.

- كنت أعلم أنك ستعود.

- قبلتِ الزواج مني، فهل قتلتِ من قتل زوجك؟

- دقائق قليلة حتى أراه صريعًا تحت قدميّ!!

- تظنين أنني من قتل زوجك؟

- نعم، أنتَ هو!

- وانتظرتِ كل هذه السنوات حتى تقتليني؟!

- لا أظن فقط، بل هى نار اليقين التى عشت عليها حتى تعود، وأراك تموت رويدًا رويدًا أمام بصري، ثلاثون قطرة سمّ وضعتها فى شرابك وطعامك؛ حتى أراك تموت ثلاثين مرة أمام عيني!

عدتَ اليوم بعد ثلاثين عامًا؛ لتنال جزاء ما عذبتني حين قتلت زوجي.. فقط لأنني أحببته، ولم أحبك أنت، قطرات العرق تنساب على جبينك، الألم بدأ يسرى فى أحشائك، تخدرت قدمك، وخارت قوة ساعدك التي قتلت بها زوجي، دقائق حتى تذوق ألم الموت؛ وأجلس أنا أراك لم تلمس التفاحة التي اشتهيتها، وقتلت زوجها لتحرق قلبها؛ حين رفضك أبوها، ورفضتك هي!

ثلاثون عامًا تعلمت فيها الصمت.. أتعلم؟ يسمونني فى الحيّ بالأرملة الصامتة، مات أبي وماتت أمي، وبقيت أنا صامتة فى انتظارك؛ وكلِّي يقين أنك ستأتي، وأراك تموت قتيلًا بيدي!!

- ثلاثون عامًا قضيتها أحبك، وأجاهد لأنسى حبَّكِ.. وفى الختام عدتُ إليك لتقتلني يداكِ، لم أقتل زوجك، أحببتك، وأحببت السعادة فى عينيكِ حين كنت أراك معه، لكنني لم أتحملها، سافرت فى الليلة السابقة لليلةِ زفافك!

- أخبروني بأنهم رأَوْكَ تحوم حول بيته فى ليلة زفافي!

- قتله من أخبركِ!

- أنت قتلته.

- أضعتِ سنوات عمرك هباءً فى انتظار انتقامٍ خاطئٍ.. ثلاثون عامًا تدخرين السمّ لي، وقاتل زوجك أمام عينيكِ!

- أنت كاذب، أنت قاتل!

- بل هو.

- من هو؟ إيّاك أن تموت قبل أن تخبرني؟

- تتمنين الحياة لي الآن؟ والسم الذى أطعمتنى إيّاه يسري فى عروقي!

- أخبرني.. من هو؟

- أكثر ما يحزنني أن أموت، ولا أرى حتى نظرة أسف فى عينيك، أحببتك وقتلتني!

تمت

عجوز طيبة.. رامي قطب

قعدت فى الحافلة المنتظرة في الموقف، عليّ أن أسافر لقضاء خمسة أيام بعيدًا عن أهلي لظروف عملي التي اعتدتها منذ ثلاثة أعوام.. الطريق من "طنطا" إلى "القاهرة" ساعة وربع، لكني أحمل همَّه كلّ مرة أسافر فيها.. فهذه الساعة تمر عليّ كأنها أيام؛ كوني لا أنام في المواصلات أبدًا، وعقلي يفكر طوال الوقت، ومعدتي جائعة دومًا؛ لذلك أفضل السفر في الليل، صحيح أن مخاطر الطريق أكثر ليلًا.. لكن الوقت يمر أسرع!

ينتظر السائق حتى تمتلئ الحافلة بالركاب، يأتي الراكب تلو الآخر.. ينظر إليّ وقد جلست في أول أريكة، ثم يختار مقعده بعيدًا عني؛ لا أدري هل يتعمدون ذلك؟! كأنه ينقصني شعور الوحدة إلى ما أنا فيه!

إلى أن أتت تلك العجوز، تتقدم ببطء في ظلام الموقف الذي تتخلله أضواء عواميد الإنارة، ظهرها مَحْنِيّ، وثوبها يكشف من ساقها شبرًا، تضع على رأسها قماشة خفيفة تغطي نصف شعرها، وشيئًا من رقبتها المتجعدة، ظلت تمشي ببطء إلى أن وصلت إلى الحافلة.. فأسندت يدها، فلمع خاتمها القديم تحت الإضاءة، وحملت حقيبة عتيقة إلى الحافلة قبل أن تصعد، ثم رفعت رأسها في سرعة ناظرة إليّ وابتسمت ابتسامة واسعة ظهر منها فم بلا أسنان سوى رباعية يتيمة.. ثم أغلقت فاها، ومدت إليّ يدها بشيء من التوسل؛ فمددت يدي إليها؛ لأساعدها على الركوب، لم تنظر إلى أي مكان، بل جلست جواري مباشرة

ناحية النافذة كأنها استأنستني.. كانت مشاعري مضطربة.. وضعت حقيبتي على رجلي، ولملمت جانبي عن جانبها حتى امتلأت الحافلة وانطلقت بنا.

مرت الدقائق الأولى على خروجنا من "طنطا" سريعة.. أتأمل فيها المباني الكئيبة، وأودعها في محبة وما إن خرجنا إلى الطريق السريع حتى بدأت أشعر بالملل، ولكن سرعان ما تبدد هذا الشعور بسماع طقطقة من ناحيتها، التفتُّ فإذا بها قد أخرجت كيسًا من حقيبتها به الكثير من اللبّ، وبدأت تقشره باستخدام رباعيتها المسكينة.

فلما رأتني التفتُّ إليها- ابتسمت، ومدت إليّ يدها ببعض اللب، فاعتذرت عن القبول؛ لأني لا آكله، فبدأت تحدثني عن نفسها بانطلاق كأننا نعرف بعضنا منذ سنين، وتعجبت من انفتاحها السريع، لا بُدّ من أنها تشعر بالوحدة أكثر مني!

توقعت أن تقول: إنها كانت شابة جميلة، وإن الزمن قد تغيّر، وتشكو إليّ، لكنها أخذت تحكي لي عن تطلعاتها إلى المستقبل، وكيف انتقلت مؤخرًا من السكن في غرفة صغيرة إلى بدروم واسع تحت الأرض يسعها، وجميع أنشطتها، وأنشطة ابنها!

ثم بدأت تحدثني عن ابنها (سامي)؛ فهو وحيدها الذي بَقِيَ لها في الدنيا، وفاجأتني بالتحدث صراحة عن أنه كان يتّجر في المخدرات، وكيف أنها كانت تساعده بتخزينها في البدروم، والحفاظ عليها من الرطوبة وعوامل التلف!!

ثم أخذت تبكي بكاءً طفوليًّا مزعجًا وهي تحكي كيف تم القبض عليه- بعد خيانة أحد صبيانه له- وأنا مندهش من جرأتها على إخبار غريب مثلي كل هذه التفاصيل.. لكنها كانت طيبة لا تكترث كيف ينظر إليها الناس.

وأنا أحب العجائز- خاصة الطيبات منهن- لذلك شعرت بالألفة معها، ونسيت هم الطريق.. وبعد دقيقة من السكوت تمسح فيها عينيها من البكاء- حدثتني كيف هرب "سامى" من السجن، وكيف أنها تخبئه الآن فى بيتها!

اندهشت مرةً أخرى، لكنها دهشةٌ مشوبةٌ بخوف؛ خاصة أنها أخبرتني هذا- بملامح جادة مخيفة، وقد تبينتُ فى ضوء الطريق نظرات لها مريبة!!

سرت قشعريرة فى جسدي.. قشعريرة رعب، نظرت حولي، فإذا السيارة ما بين نائم ومشغول بالحديث مع جاره، وفجأة وجدتها تضع يدها على كتفى وتقترب من أذني، وتهمس بلهجة مخيفة: أريدك أن تأتي معي لترى "سامى" فهو ليس على ما يُرام منذ أصابه جرح بعد هروبه.

فكرت أن أتملّص منها، لكنَّ رهبة الموقف جعلتني أوافق كأنه لا مفرَّ!!

***

بيتها دافئ.. حقًّا إنه كذلك.. فكرة العيش في بدروم تحت الأرض ليست سيئة أبدًا.. أحسست بهذا بعد انصرافي من عندها شبعانَ.. أمسكت منديلاً.. مسحت بعض قطرات حمراء من على شفتيّ... إنها امرأة طيبة حقًّا!

تمت

اختفاءٌ.. هالة محمد الجمسي

رنَّ جرس هاتفي المحمول.. كان محامي الأسرة يلحُّ عليَّ- باستماتة- أن أطلب من المحكمة اعتبار فترة العام على اختفاء والدي إعلان وفاة؛ ليؤول لي الإرث بالكامل. أخبرته- باقتضاب- أنني لا أزال أشعر بوجوده بالحياة، وسأنتظر عودته.

أغلقت الهاتف، وتركت لدموعي العنان.. ترى أين أنت والدي العزيز؟ أي جدران تضمّك الآن؟ وأية عائلة تؤويك؟ إذا كنت حقًّا قد رحلت عن الحياة- فأين جثتك؟! وكيف رحلت؟ بل.. ومتى؟

لقد كنا معًا قبل اختفائك.. ألقيت عليك تحية المساء، وذهبت صباحًا للعمل بالمشفى، وحين عدتُّ لم أجدك.. انتظرت عودتك؛ ربما خرجت- كعادتك- لمدة ساعة، ولكن مرَّ عام كامل ولم تعد!

بحثت عنك بين أرجاء البلاد؛ ولم أعثر لك على أثر.. لا يزال الإعلان عن فقدك بالصحف، ومكافأة مالية ضخمة لمن يجدك.. وضعت رأسي تحت الصنبور أحاول أن أزيح فكرة موتك من رأسي!

انتبهت فجأة أن الساعة تجاوزت الثامنة مساءً؛ يجب أن أسرع لألحق بالقطار، سأذهب إلى مسقط رأس أبي؛ أريد أن أشعر بأنفاس أبي وسط أهلي وعشيرتي..

توقف القطار أخيرًا، لا تزال أزقة القرية كما هي، والبيوت القديمة والأراضي الخضراء.. لم يتغير شيء!

شعرت بخطوات تسير خلفي؛ استدرت لأرى، فلم أجد أحدًا.. ربما خُيّل لي، ولكن وقْع الخطوات استمر خلفي، أكاد أجزم بأنفاس خلف ظهري، وعيناي تبصران ظلَّ طفل أمامي؛ استدرت لأنظر للزقاق الضيق- حيث لا يوجد غيري- شعرت برهبة تسري داخلي، وتفصَّدَ عرق من وجهي.. سمعت صوت اصطكاك أسناني ببعضها، أعقبها صدى ضحكة ساخرة جعلتني أركض مسرعًا.. توقفت أمام منزلنا القديم، دلفت مسرعًا وأنا أُطمئن ذاتي:

- اهدأ دكتور "صفوت"؛ إنها مجرد خيالات، وربما ضَعْفُ بصرك.. هو من صور لك كل هذا!

بالصباح الباكر ذهبت إلى أقارب والدي، كانت كلماتهم تحمل شفقة ورثاءً، وطالت أحاديثهم عن كرم والدي الطائيّ! فجميع من بالقرية يدين لوالدي..عشرات البيوت تحمل بين جدرانها أسرًا تدفع إيجارات رمزية لوالدي، واختص والدي عشرات آخرين لإعفائهم من كلفة الإيجار الزهيد، والأراضي الزراعية التي تثمر، وتعطي للقرية اللون الأخضر المميز- هي ملك والدي الذي يتركه للمزارعين مقابل سعر زهيد.

- يا دكتور، يا دكتور.

انتبهت من شرودي على كلمة خال والدي "وجيه" الذي تابع:

- الطفل "يونس".

حين لم أعقب، أشار بيده لأحد البيوت القريبة.. حيث تجمع عدد من النسوة بساحة الدار حول طفل صغير نحيل الجسم ممدّد مغمض العينين، ارتعشت

يداه وقدمه بصورة اهتزازية مسرعة؛ أسرعت للمنزل وطلبت من الجميع أن يتفرقوا لأتفقد الطفل، بينما صوت قريبي يهتف بحسم:

- الدكتور "صفوان" ابن الدكتور "شاهين"- الله يرجعه لنا بالسلامة.

حين انحنيت فوق جسد الطفل- توقفت أطرافه عن الاهتزاز، ونظر لي نظرة ثاقبة، وهو يهمس:

- مات!!

شعرت برهبة تسري بأوصالي، وأنا أنظر له قبل أن يهمس ثانية:

- أبوك!

الغريب بعدها أن الطفل قد نهض، وقد زالت منه آثار الكهرباء الزائدة.. في حين التقطه النسوة مطلقات الزغاريد، وعبارات التهنئة بسلامته!

قبل أن أغادر- ألقيت نظرة على الطفل الذي بادلني النظرة بطريقة جعلت معدتي تتقلص!

هل من الممكن أن يكون الطفل يعلم ما حدث لوالدي؟! واضح أن الجميع لم يستمع للكلمتين اللتين نطقهما.. جذبني العم "وجيه" لأتناول الغداء معه.. لم أرفض، أصررت على الجلوس بالشرفة الخارجية التي تطل على منزل الطفل "يونس".. شاهدته يلعب بساحة المنزل، كان يرسم عينين بقلم جاف، كانت العينان زرقاوين مثل عينيْ والدي، والقلم... مهلًا، إن القلم لوالدي! إنه أحد أقلامه! لا يمكن أن أخطئ أقلام والدي؛ كل أقلامه تحمل على جوانبها (د. ش، ص)!

لقد حرص والدي- منذ مولدي- على كتابة أول حروفنا على أقلام يستخدمها، وكان مؤمنًا بأني سأصير طبيبًا مثله.. راقبت الفتى الذي أنهى رسوماته مع انتهاء حبر القلم؛ قذف به بلا مبالاة بساحة المنزل، وأنا أراقبه قبل أن يركض لداخل المنزل.

بالمساء في طريق عودتي بعد أن اشتريت بضع أغراض البقالة- لمحت الطفل يقف بمسافة قريبة من منزلي.. اقتربت منه، ألقيت عليه التحية؛ لم يُجب.. ظل يتأملني بصمت، بحثت عن قطعة الشيكولاتة التي وضعها البقال لي عوضًا عن الباقي.. أعطيتها له، أخذها قائلًا:

- تأمل يدك!

نظرت ليدي بدهشة؛ إنها جملة والدي الدائمة لي:

- "تأمل يدك؛ ستصير جراحًا يومًا ما"!

وبعد أن تحققت أمنيته كان يرددها دائمًا على مسامعي.. جملة بها فخر، وصدقت نبوءته!

سألت الطفل وأنا أرتعش:

- بماذا تفوهت الآن؟!

ابتسم الطفل، وردَّد:

- سلمت يدك!

ثم انطلق يعدو باتجاه منزله؛ مما جعلني أوقن أن الطفل يستهزئ بي؛ إنه يعرف شيئًا ما عن والدي؛ يجب أن أجد طريقة لأفهم ما يعرفه هذا الطفل؟!

بالصباح كنت قد اشتريت علبة كاملة من الشيكولاتة، كنت أراقب الطفل من شرفة منزلي وهو يلعب مع أقرانه.. حانت تلك اللحظة التي توقف بها عن اللعب، ونظر لي الطفل نظرة عابرة؛ فلوَّحتُ له بالشيكولاتة.. رحل الطفل مع أقرانه، وشعور باليأس يتسلل لي؛ أنا احتاج منه فقط بضع كلمات!

بعد ساعة كاملة شاهدت الطفل يظهر على استحياء، يخبئ جلبابه ونصف جسده وراء جدار أحد المنازل.. بينما يظهر وجهه وصدره! أشرت له بالعلبة كاملة؛ فأظهر جسده المختبئ خلف الجدار.. أظنه قَبِلَ التفاوض، سرت له ووضعت العلبة كاملة بيده؛ تلفت الطفل حوله ليتأكد ألا أحد يرانا، همست له:

- هل شاهدت والدي؟!

احتضن علبة الشيكولاتة وردد:

- والدي؟

هززت رأسي بالإيجاب؛ فأشار لي للمقابر؛ فهمست بخوف:

- هل مات؟!

هز رأسه بالإيجاب قائلًا:

- قبر والدك!

حين سلكنا طريق المقابر سويًا- كانت البلدة تغطُّ في ظلام عميق، كنا صامتين يرافقنا نباح كلاب! تجاهلت صراخًا وعويلًا- مجهول المصدر- يحيط بنا، كانت الريح تحاول أن تعيدنا بأرجحة جسَدَيْنَا للخلف، ولكن الطفل بدا شجاعًا وهو يتقدمني؛ لنقف أمام بوابة قبر عائلتي.. إنها المقبرة الوحيدة التي تحيط بها

بوابة حديدية عالية.. فتحت البوابة بميدالية تحتوى على عدة مفاتيح- كانت ترافق يد والدي!
ولجنا للداخل، فتحت المقبرة بيد ترتعش، وأطلقت شهقة وأنا أنكب على الهيكل العظمي لوالدي المُسَجّى على وجهه، وأطلقت لدموعي العنان!
إنه هو، هي بذلته التي كان يرتديها بآخر يوم كنا معًا، وخاتمه الفضي ذو الأيقونة الزرقاء، هناك شيءٌ برأس الهيكل العظمي.. إنه أثر واضح لخبطة قوية على رأسه؛ لقد مات مقتولًا.. من قام بقتله دفنه بملابسه!
كان القطار على وشك التحرك، وأنا أستقر داخله.. صوت مآذن القرية لا يكفُّ عن طلبٍ من الجميع البحث عن الطفل "يونس" المختفى منذ يومين!
فتحت حقيبتي، بحثت بين أغراضها عن هاتفي، أخبرت المحامي أن ينهي إجراءات اعتبار والدي ميتًا بحكم غيابه.. اصطدمت يدي بعلبة الشيكولاتة؛ فألقيتها والقطار يتحرك.. لقد تخلصت من الشاهد الوحيد على جريمتي بجوار والدي!
أخرجت ورقة تحمل تنازلًا من أبي عن كلِّ أملاكه للجمعيات الخيرية.. أشعلت بها النيران، والتقطت ورقة أخرى لأصمم عليها مستشفاي الاستثماري الطبي!!

تمت

عجوزٌ عشرينيّ!.. إيمان الصياد

في غمرةِ الأصوات الصاخبة والصراخ، وهزيز الريح، كنت أجلس منتحيةً جانبًا، بعيدةً عن الصفوف المتزاحمة، الخوف يكسو ملامحي، أتطلع إلى الأمام بعينين تطلّ منهما نظرةٌ تتَّسم بالاكتئاب! أفكر بالماضي، وأسترجعه قبل أن أخطو للمستقبل؛ لعلي أتعلم الدرس جيّدًا.

كنت أراه كلّ يومٍ يكتب وجهة نظرٍ، أو يمزح مع صديق، فقط صورته التي كانت تغمر حسابه الشخصيّ على "الفيسبوك" هي الرابط الذى لم يكن يتركني! أثار خيالي، خيال فتاةٍ لا تتعدى الثمانية عشر ربيعًا، كانت تتسم ملامح وجهه بالغموض، ربما هذا هو السبب الأول الذي أثارني، وكأنه كان بانتظار الخطوة الأولى مني؛ لن أنكر أنني كنت حذرة في معاملته في بادئ الأمر، لكنه أطلق العنان لكلماته المعسولة، التي كنت أتضرج احمرارًا عندما يلقيها على مسامعي، دقات قلبي كانت تقرع كالطبول داخل صدري مع كل كلمة: "أحبك"، والتي كان يقولها لي مرارًا، وتكرارًا دون مَلل. وحيدًا -كما كان يخبرني- في بلدٍ عربيةٍ، ترك عائلته من أجل لقمة العيش ومساندتهم في مُتطلبات الحياة وأعبائها، لم أعهده بخيلًا أبدًا، كل شيءٍ مُجاب، وكأنه مصباح علاء الدين، آمر فأُطاع دون نقاش.

وكأن غشاوة الظلمات انجلت عن ذهني بمفردها ذات يومٍ عندما قلت بهزلٍ:

- ألم يحن الوقت لنعلن عن ارتباطنا رسميًّا أمام الجميع؟!

- بلى، حبيبتي.. في أقرب وقتٍ، ولكن ليس الآن؛ أنتِ تعرفين أنني أكثر منكِ تعجُّلًا، ولكن أيضًا تعرفين أن "أسماء" شقيقتي ستتزوج في آخر الشهر المقبل، وأخي الأصغر "أيمن" في ذروة الامتحانات، ألن تتحمليني بعض الوقت كما عهدتك يا جميلتي الصغيرة؟

- بلى، لن أخذلك، فلننتظر قليلًا حتى يجمعنا بيت!

- هذا ما أريده منكِ، الصبر، فقط الصبر، والآن أهدني صورةً جميلةً لكِ؛ فأنا أتعطش لرؤية سنابل القمح التي تنسدل على ظهرك، وخضرة عينيكِ.

لم أنكر أن كل خطَتِه- التي كان ينسجها من محض خياله- كانت مُقنعةً بالنسبة لي! ولكن بعد وقتٍ كنت منهكة القوى، أنظر في المرآة فأرى شعري الذهبي، وعينَيّ الخضراوين، وبشرتي الحنطية يشعون جمالًا؛ فأتحسر على كل شيء!

والسؤال الذي لم أحصل على إجابته يراودني دائمًا، لماذا يمتنع عن مُهاتفتي صوتيًّا، أو عبر (الفيديو كول) رغم وجودنا سويًّا ما يُقارب من السنة والنصف؟ لا أدري أية قوةٍ مغناطيسيةٍ خارقةٍ تجذبني له دون تحكمٍ.

كنت أعرف حالاته من حسابه، فحين يكون ذا مزاجٍ جيد، كنت أراه يمزح مع الجميع، وحين يكون العكس، كان يشغل بالي باختفائه المفاجئ، ولكني لن أمَلّ من طرح السؤال نفسه:"هاشم"، أريد سماع صوتك، أو رؤيتك"!

مزحاته وسُخريته من طلبي كانت تدخلني في حالةٍ عصبيةٍ تجعلني أطيح بمن بالمنزل دون تفكيرٍ بالعواقب، ورغم محاولته أن يبدو مرحًا؛ إلَّا أنني كنت مستاءةً منه، ومن رفضه طلبي دائمًا باختلاق الحجج والأعذار، وكان عزائي الوحيد هو الخلاص من ذلك المنزل الذى يضمني أنا وأمي وشقيقتي بعد موت

أبي، فلقد مرت بي سنواتٌ لا أذكر عنها شيئًا، سنواتٌ ضائعةٌ لا حساب لها في العمر!

- لا تغضب هكذا يا "هاشم"؛ فالمرض كان أقوى مني، ولم أنجُ منه إلَّا بإجراء عمليةٍ لاستئصال المرارة!

- هل فكرتِ بي؟ هل تعرفين مدى شعوري بالعجز، وأنا لا أملك شيئًا سوى الانتظار والصبر حتى ظهورك مرةً أخرى؟ والآن أريد تقريرًا مُفصلًا عن حالتك.

- بخير؛ لا تقلق، فقط بعض الأمور المادية تعيقني، لكن كل شيءٍ سيكون على ما يرام، لا تشغل تفكيرك.

في اليوم نفسه رأيت هاتفي يعلن عن وصول رسالة، قرأتها وصُدِمْتُ بمحتواها؛ فـ"هاشم" قد حوَّل لي على حسابي مبلغ عشرة آلاف جنيه!

لم أهدأ حتى أرسلت له عبر (الماسينجر) -الذي نتحدث من خلاله طوال فترة تعارفنا- أعاتبه على فعلته:

- لِمَ فعلت هذا؟! لن أقبل هذا المال أبدًا.

- ولِمَ لا؟!

سؤال، من يتعرض له يراه بسيطًا، لكني رأيته غير ذلك، رغم حبي له لكني لم أقبل أمواله؛ فأنا لم أكن في بيته حتى أسمح لنفسي بالتصرف بأريحية هكذا، كان إصراره أقوى من رفضي، فقبلتُ على استحياءٍ وأنا أقنع نفسي أنه الحب الأول والأخير، العوض الذي وضعه الله في طريقي.

في ظلمة الليل كنت أجلس واضعةً رأسي بين راحة يدي، أشعر بضيقٍ يعتري صدري، "أمل شقيقتي" تغفو بجانبي كالملاك البريء، وأمي منعزلةً كعادتها بغرفتها لم تشغل، ولو حيزًا بسيطًا من تفكيرها بشأني!

الأيام تمر دون جديدٍ، فقط محادثات يومية مثل: "أخبارك -أشتاقك- سأعوضك".. ثلاث كلماتٍ ترسخ بذهني، وعلقت به من كثرة التكرار! الأمر أصبح لا يُطاق، هناك شيءٌ خاطئ، لكنني لا أعلمه، فقط أشعر بذلك دون دليلٍ ملموس!

جاءتني الطامة الكبرى التي قضت على قلبي، والتي لم يصدقها عقلٌ، حين راسلني صديقٌ له ببعض الكلمات الصغيرة قائلًا بشفقة:

- أعرفك بنفسي، فأنا "عامر" صديق "هاشم" المُقرب، لا تعرفينني، ولكني أعرفك جيّدًا، أعتذر منكِ أوّلًا على عدم مُراسلتي لكِ من قبل، لكني لم أعلم بأمرك سوى منذ يومين فقط، يؤسفني أن أصدمك بحقيقة الرجل الذي أوقعكِ في فَخّه، والذي يقع هو في دائرة المُراهقة المتأخرة، فـ"هاشم" السوري لم يكن سوى شخص قد تعدَّى العقد السادس من عمره، فأسفًا على قلبٍ ذاب في عشق مَن لا يستحق، وداعًا يا صغيرة؛ حفظكِ المولى!

شُلّ تفكيري قبل جسدي الذي كان يحتضر من هول الصدمة، لم أحاول حينذاك مراسلته، فكنت أعلم أن هناك شيئًا غير صحيح، ظللت خمسة أيامٍ كما أنا، طريحة فراشي مُستلقيةً على ظهري، أنظر لسقف غرفتي أتأمل لونه الأبيض دون التفكير بشيء! مَرت سنوات عمري أمام نظري كشريطٍ سينمائي، أعترف بالخطأ الفادح الذي ارتكبته.. نعم، أنا من راسلته، أنا من كنت أهفو لذرة

اهتمام، لكني معذورة؛ فالبيت الذي أسكنه باردٌ خالٍ من أية مشاعر قد تكون موجودة.. أعرف أنه عُذرٌ أقبح من ذنب، لكنهم من دفعوني لذلك؛ فاللوم يسقط على الجميع وليس عليَّ فقط!

المفجع هو أن كل ما كان يقول لي إنه حقيقي عنه ليس حقيقته هو- بل حقيقة من يعيشون حوله! "أسماء" لم تكن سوى ابنته، وليست شقيقته، "أيمن" أيضًا ابنه الذي كان بآخر سنةٍ له بكلية الآثار، والدته التي كان يغرقني بصورها كلّ يومٍ لم تكن سوى زوجتة المصون!

انطفأ نور عيني، وقلبي ينشطر لنصفين وهو يرسل لي آخر ما خطت يداه قبل أن يعطيني "بلوك" بضغطةٍ زِرٍّ؛ كي يُفتش عن ضحيةٍ جديدة:

- عامان ونصف العام لم يستحقوا أكثر من عشرة آلاف جنيه؛ فلا داعِيَ للتهوّر يا صغيرة، فالربح يتراوح بين مالٍ أخذتِه، وصورةٍ أمتلكها.. وداعًا!!

لا أعلم إذا كانت هذه النهاية، أم البداية، لكني أشعر بالخواء وأنا جالسةٌ وسط الغرباء يلتفون بالسواد من أعلى رأسهم إلى أخمص أقدامهم، يبكون على رحيل أمي بعد أن تركتني، وكأنها تقسم على عدم وقوفها بجانبي، تاركةً لي شقيقتي لأحمل مسؤوليتها على عاتقي دون رحمة!

تمت

صراع.. أسماء شعبان سالم

طرقاتٌ خاليةُ من المارةِ، نسماتُ هواءٍ باردةٍ تُداعب أوراق الشجر؛ ليتساقط منها كلّ ضعيفٍ ومتهالك، تتزايد سحابةٌ رماديةٌ مع تزايد الريح، تحجب الرؤية تمامًا، أقف في شرفتي أحتسي قهوتي الصباحية المفضلة قبل الذهاب إلى عملي، أتنفس هواء الصباح الباكر، سمعت فجأةً صوتًا كالانفجار؛ نقلت نظري إلى الطريق، فرأيت سيارةً تتقدم، ولم تتضح لي رؤيتها؛ بسبب ذلك الطقس المرتبك، نزلتُ مسرعًا إليها، تقدّمت ببطءٍ شديدٍ لأتبين الأمر؛ سمعت صوت استغاثةٍ، ويبدو أنه صوتٌ أنثويٌّ يتداخل معه صراخ طفل، اقتربت أكثر محاولًا المساعدة بعد أن اتضحت أمامي رؤية السيارة، ولكني لم أجد أحدًا، مررت بجانبها مرارًا و تكرارًا، ولكنني لم أعثر على أحد، وبدأتُ التحرك بخطواتٍ بطيئةٍ وأنا أجول بنظري على كل ما هو حولي بحثًا عن مصدر ذلك الصوت، ولكن الغريب أنه يختفي كلما ابتعدت عن السيارة، عدتُّ إليها مرةً أخرى، يتضح صراخ الطفل، واستغاثة السيدة كلما اقتربت، لكنني لم أعثر على أحد!

"مجدي عبد الرحمن"، أبلغ من العمر ثلاثةً وأربعين عامًا، أمتلك مركزًا لصيانة السيارات، لديَّ أخ يصغرني بسبع سنواتٍ، ويعمل بمحل والدي بعد وفاته، واليوم افتتاح الفرع الثاني له، شابٌّ ملتزمٌ وناجحٌ جِدًّا، ورزقه الله زوجةً صالحة، رضيت به وهي تعلم إعاقته؛ تراه مكتملًا، ولا ينقصه شيء.. أما أنا، فلم أتزوج حتى الآن، وأعيش على ذكرى حبيبتي، لكن ينتابني سؤال كلّ ليلةٍ:

هل تتذكرني؟! تخليت عنها دون سببٍ، وأردتُ أن أعاقب نفسي بدرسٍ قاسٍ بعض الشيء!

صعدتُ مرةً أخرى لشرفتي، وأنا في حالة ذهول، أين هما؟! ماذا حدث؟! هل هذا كان واقعًا حقًّا أمام عيني؟! أم أنه حُلمٌ سخيفٌ يتكرر معي؟!

تطلعت بحثًا عن السيارةِ مرةً أخرى؛ فلعله كابوسٌ، أو أن طول السهر أطار عقلي!

رأيتها بوضوحٍ.. وكأن السحاب انقشع، ولم يعد الطقس باردًا، بل ترتفع درجة الحرارة وكأن شيئًا بداخلي يحترق.. لقد حان وقت ذهابي للعمل، وصوت والدتي يعلو وهي تصرخ فيَّ لأتناول فطوري، بدلاً من احتساء قهوتي.

داخل غرفةٍ مظلمةٍ يجلس شابٌّ ذو لحيةٍ طويلةٍ وشعرٍ كثيفٍ كسواد الليلِ الكالح، عيناه متسعتان، لديه نظرةٌ حادة، يرتسم العبوس على وجهه، يشعل سيجارته التي لا تفارق يده، يهز رأسه بعصبية وهو يدخن سيجارته بشراهةٍ و يصرخ قائلًا:

- يكفي هذا الهراء، لا بُدّ من أن تعترف بخطئِك الآن، ليس هنا أحد سوانا، هيا اعترف أنك مخطئٌ!

اتسعت شفتاه وهو ينظر أمامه بابتسامةٍ ساخرةٍ، يصفق ويدور داخل غرفته المظلمة مكملًا:

- هل تظن أنك ذكيٌّ لتخفي جريمتك كل هذه السنوات، أنت غبي، بل إنك لا تملك شيئًا يتصلُ بالإنسانية، أنت مجرمٌ قاتلٌ متهور، تستحق أن تموت هنا بتلك الغرفة أيها الجبان!

حلّ الصمت عندما فَتح باب الغرفةِ رجلٌ كبيرٌ في السن، يبدو أن الحزن نحت تجاعيد وجهه بدقةٍ! نظر إليَّ ذلك الشاب، وأصبح على مقربةٍ منه وهو يقول له:

- مع من تتحدث يا بني؟!

ينقل بصره في زوايا الغرفة منتظرًا إجابته، التفت إليه وهو يعيد عليه سؤاله مرةً أخرى، ولكن ظهر على الشاب الوجوم، ولم يتفوه بشيء، خرج العجوز من باب الغرفة متوسلًا لله أن يعيد له عقل ابنه من جديد.

- أبي، أتبكي؟!

قالها شابٌّ طويل القامة، ويمتلك من ملامح والده الكثير، حتى الحزن المنحوت على وجهه له نصيبٌ منه!

اقترب منه العجوز، وقال بحزنٍ:

- أبكي على حال أخيك يا "كريم"، ربت على كتفه وهو يكمل: مرت سنواتٌ على فقدان والدتكما، لكنه لم يستردّ عقله!

- أبي، لقد صنعتُ لك الحلوى كما كانت تفعل أمي لتبيعها بمتجرك!

ابتسم له والده قائلًا:

- إذن سنخسر سمعتنا!

ضحكا سويًّا؛ ليقول "كريم" متصنّعًا التفاخر:

- كنت أصنع معها الحلوى، فلا تخف، ستبيعها وستظل سُمعتك مثل حلواك يا أبي!

- حقًّا، أشتاق لمذاق الحلوى التي كانت تصنعها، أحضرها إذن والْحق بي يا بنيَّ.

تمتم بالدعاء، وأطلق مؤذن المسجد الأذان معلنًا صلاة المغرب، خرج العجوز للذهاب إلى المسجد، وبداخل الغرفة المظلمة صراعٌ آخر.

اقترب الشاب الغامض من نافذته ليفتحها على مصراعيها، وهو يستمع إلي الأذان، وانهمر بالبكاء، راجيًا مختنقًا:

- يـــــاااااارب.

- ألم يكفك حديث والدك عن أمك كل ليلةٍ؟ بماذا تشعر عند رؤية دموع والدك ونبرته المُختنقة بحبه لها، وتكرار حديثه عنها؟ يكفي هذا، يكفي، وكذلك حزن أخيك بعد رفض حبيبته الزواج منه؛ بسبب إعاقته التي تسببت بها، لقد دمرت أسرتك؛ وعليك أن تنهض لتكون سندًا لهم، لا تكن كسرةً أخرى لهم، تيقظ لذاتك أوّلًا؛ كنت سببًا في موت أمك، ولكن الله لا يكتب شيئًا هباءً، لقد أضعت سنوات كثيرة في عُزلتك هذه، وحالتك هذه لم تفِد أسرتك بشيءٍ سوى أن الأمر زاد سوءًا، فكر في حكمته في هذا، وراجع نفسك.. ماذا تنتظر؟!

ذهب "كريم" لوالده بالمسجد، ورأى تجمّعًا عجيبًا هناك، بحث عن والده بين المصلين فلم يجده، اقترب من الحشدِ بالركن الآخر؛ ليجد والده ملقًى على وجهه، والجميع يتمتمون بالدعاء له، ويقترب بعضهم من "كريم" قائلين:

- رحمه الله وأحسن خاتمته.. البقاء لله!

لم يتفوه "كريم" بشيءٍ سوى:

- ذهبتَ لأمي؛ لتتذوق حلواها يا أبي وتركتني؟!

أمسك الشيخ مكبر الصوت بالمسجد مُعلنًا وفاة الحاج "عبد الرحمن حسن"، وبداخل تلك الغرفة اللعينة ما زال "مجدي" واقفًا أمام مرآته يرى انعكاس وجهه، ويتحدث لها، واخترق الخبر سمعه، اتسعت عيناه، واحمرّ وجهه، وارتسم العبوس، والغضب على وجهه قائلًا بصوتٍ جهوري:

- ماذا تنتظر إذن حتى تفيق؟!

وسرعان ما هشم زجاج المرآة بيده، وأسرع إلى المسجد ليحتضن والده بين ذراعيه، يقبِّل وجنتيه، وكف يده بارتجافٍ قائلًا:

- كنت سأعود إليك يا أبي، لماذا لم تنتظرني؟! لماذا؟!

أقبل عليه أخوه وهو يسند قدمه الحديدية بيده بثقلٍ وقبَّل رأسه قائلًا:

- أنت عدتَ من أجلي أنا، فأنا بحاجةٍ إليك الآن أكثر يا أخي.

نعم، أنا "مجدي" ابن الحاج "عبد الرحمن حسن".. الذي عاد بصدمة أبيه مرةً أخرى؛ فقدت الكثير لأعود إنسانًا من جديد، عندما كنت شابًّا صغيرًا أمتلكُ أبًا وأمًا وأخًا شقيًّا- كنت مستهترًا كثيرًا.. سهر، خمر، كان لديَّ حبيبة تقف بجانبي، وتحاول مساعدتي لأكون رجلًا تفخر به، ولم أقدر! والآن لا أملك أحدًا، ولكنني أصبحت مثلما تمنّوْا، فهل سيعود أبي ليفتخر بابنه الكبير؟! وهل سأجد أمي تنتظرني كل ليلةٍ على سجادة الصلاة بالدعاء؟! وحبيبتي.. ماذا تفعل الآن؟! أين هي؟! هل ستسامحني، وتعود يا ترى؟! أم أصبحت أمًّا؟! كانت تحلم، ولكن لأبناء رجلٍ آخر!!

تمت

مَحْظُورٌ.. شروق إلهامي

تعبت بشدة، عشرات الممنوعات كانت تتراءى، وتتراكم في طريقها بلا نهاية، ممنوعات مباحة لسواها، أهمها حرية الاختلاف سواءً في الرأي، أو الاختيار، عليها أن تقبل باختياراتهم هم في حياتها، وقبول تجاهلهم التام لرغبتها الخاصة.. ولو في لون الملابس!

هي ليست من محبِّي الجدال.. خاصّةً لو طال عن دقيقتين، فيتحول لمشاجرة تُنعَت فيها بسوء الخلق، وانعدام التربية! وغالبًا ما يكون الجيران قد شاركوها كل تفاصيل الموضوع لارتفاع الصوت؛ لذا تصمت، وتقبل متى توقعت هذا في أيّ حوار.

ومع الوقت أصبحت كجدار ليس له حرية اختيار لون دهانه، أو ككرسِيٍّ ليس له حق الاعتراض على شكل كِسْوتِه، بل عليهما الاثنان قبول ما سيتم اختياره من الآخرين، شاكرين لكسوتهم، أو تلوينهم!

قياسًا على ذلك، وصل الأمر لاختيار عريسها الذي لم تجد بينها وبينه أية طموحات، أو سمات مشتركة، تظهر لها أنها ستنتقل من بيت لا تحبه لبيت يختلف عنه. تحجّجتْ بآلاف الحِجَج.. وكالعادة لم يبالِ أحدٌ!

قالت: أطول منها بـ 50 سم، وتمشي بجانبه كابنته، لا خطيبته.. فأرجعوا ذلك إلى قِصَرِ قامتها هي، وأنها يجب أن تخجل من ذلك، لا أن تعيبه هو به!

قالت: إنه دميم.. فقالوا: لا تعيبي في خلق ربك!

قالت: بخيل.. قالوا: بل حريص ذكيّ؛ ويفعل ذلك ليستطيع أن يجهز الشقة بأفضل ما يمكن!

لم تقل شيئًا آخر؛ لأنهم منعوها بعدما ملُّوا من كثرة اعتراضاتها؛ فشعرت بالحزن من مبالغتهم في التبرير له، وكأنه هو ابنهم، وليست هي!!

حين قامت الثورة في مصر استمدّتْ منها بعض القوة، وثارتْ في البيت، واعترضت على حالها، وعلى هذة الزيجة التي تقترب- دون مبالاة- لأحوال البلد، أو بها نفسها!

ولم يكن من أبيها سوي أن قرَّبَ موعدها أكثر؛ عندًا بها، وإسراعًا في التخلص منها لآخر يتحمل هو ضجرها، وشكواها، واعتراضاتها.

وبعد أن حدد الموعد مع العريس المبجّل، أعلن الرئيس السابق تنحِّيه عن الحكم؛ رأت وقتها في سلوك أبيها وصمته الطويل- خيبة أمل، وانكسار مقنَّع في صورة غضب مبالغ لا مبَرِّرَ له.. كان كمن رأى قدوته في التحكم والسيطرة، والإدارة.. سقط من مكانته، وانكسر!

سادت الفوضَى البلد، وموعد الفرح يقترب بشدة، والأب في صمته قد أغلق جميع أبواب التأجيل التي تقترحها الأم والعريس، وهي في صمت تتابع بلا أيِّ تعليق، أو تفاعل كدمية مسلم أمرها لغيرها ليفعلوا ما يشاؤون.. حتي جاء يوم الفرح، وقد أعدتها أمها بلا أيّ حماس، أو اعتراض منها، وقد تمَّ تبكير موعد الفرح؛ ليكون قبل موعد الحظر بثلاث ساعات؛ ممّا جعل الفرح يبدأ قبل أن يسدل الليل ظلامه.. على عكس باقي الأفراح!

كان العريس ضاحكَ الوجه، وقد أبدته البدلة أكثر فخامة، بينما الكعب العالي والفستان الممتلئ جعلاها أكثر ضخامة، وأقرب إليه حجمًا! ولكنها أدركت أنه بمجرد أن يغلق باب شقته عليها، ويجردها منهما- ستصبح كالفأر المبلول أمام عملاق! فارتجفت رغمًا عنها أمام الجميع الذين تهامسوا بظنونهم في العروس التي لا تبتسم في فرحها!

لم تكن لها حرية العبوس، وإذا حدث بشكل تلقائي رغمًا عنها- حين تفكر فيما سيحدث في الساعات التي تلي هذا الازدحام- تجد أحد والديها يقترب منها، ويزجرها همسًا، ويهدِّدها بأشدّ عقاب لو فضحتهم أمام الحاضرين!

ولكنها كذلك لم تستطع أن تظلم روحها أكثر ممّا فعلت بها؛ لتجبرها علي الابتسام ولو مجاملة! الجميع تهامسوا، ولكن لم يملك أحدهم الجرأة لوقف هذا الحدث المشئوم، أو حتي سؤالها عمَّا بها؛ فقد يتهامس الصالح منهم أمامها، والباقي ينسج حولها عشرات الظنون السيئة!

الفرح كان في الشارع؛ عريسها أقنع أباها بأن المال الذي سينفق علي قاعة- يمكن توفير أكثر من نصفه والذهاب به لعمل عُمرة بعد الزواج؛ حتي يبارك في تلك الزيجة.

وهي مجرد دمية؛ ستنتقل من بيت لبيت، فلا حاجة لسؤالها عن رغبتها! أدركت منذ وقت مبكر في تلك الخطوبة- أن هذا الزوج لن يختلف عن أبيها؛ لذا لا داعي من الجدال الفارغ؛ فهو لن ينفذ سوى ما يرغبه، ويراه مناسبًا!

وحين وافق أبوها على اقتراح الزواج بالشارع- تم الترتيب له، وزاد عدد الحضور والمشاهدين من سكان المباني الجالسين في شرفاتهم؛ ليقيّموا: الملابس، ونوع الأكل، ومستوى الفرح، ومدى بذخ أهل العريس والعروس!

قامت قبل انتهاء الفرح بنصف ساعة؛ ففوجئ الجميع لتحرّكها أخيرًا، وحدها دون أيٍّ من أهلها، أو أهل العريس، ثم ابتسمت ابتسامة واسعة للجميع وتوجهت نحو الفتى الذي يدير الأغاني، ومالت عليه بشكل مبالغ؛ أسقط طرفي الطرحة بجانبها؛ فلم يرَ أحد المال الذي نقدته إيّاه مع قرص مَرِن.. ذلك الذي كانت قد خبَّأته بين طيَّات فستانها، حين دخلت المرحاض قبل النزول للشارع مباشرة! وقالت له شيئًا لم يسمعه سواه؛ بسبب ارتفاع الصوت، ورجتْه كثيرًا حتي وافق، ثم ابتعدت عنه وهي تنظر للدبابات الرابضة على طرَفَيِ الشارع منذ يومين، ثم وقفت في نصف الشارع.. والجميع يتابعها بدهشة، وترقّب لما ستفعله!

وفجأة، توقفت الأغنية الخاصة بالمهرجانات، وارتفع صوت أغنية راقصة أخرى قديمة قليلًا؛ فنظر البعض إلي الفتى بدهشة أكبر لهذا التغير المفاجئ، ثم بدأت هي في الرقص بتركيز مبالغ، وشيء من المعاناة لحجم الفستان!

صفق الجميع، ونزل العريس من على كرسيِّه العالي مرتبكًا محرجًا؛ ليشارك عروسه الرقص! وظلت ترقص، وترفض التوقف باستماتة، والجميع يصفق مبتهجًا لحماسها وابتسامتها الدائمة، والأغاني تتتابع بلا توقف، والدقائق تمرّ، والوقت ينفد.. حتى تمّ تجاوز الوقت المحدّد المسموح وبدأ الحظر، واقترب بعض الضباط من أبيها يحدثونه بوجوب الانتهاء، وهي تشتد في الرقص!

وبدأ يقل عدد الحضور الذين انتبهوا فجأة للتأخير.. بعد أن أغفلتهم العروس وتحمست فقط في آخر الحفل!

ظل الواقفون في الشرفات يشاهدون الحدث، والعريس الذي يحاول إقناع عروسه بالتوقف، وقد أشار لفتى الأغاني بأن يتوقف.. وكلاهما تجاهلاه!

واستمرت هي في الرقص، وآباء العروسين يحاولون إقناع الضباط بالصبر، والأم لا تفهم ما يحدث، وحين غضب العريس- صفع عروسه لتتوقف؛ فامتلات عيناها بالدموع، واستمرت في الرقص، فجذبها بعنف من ذراعها جارًّا إيّاها خلفه؛ فسقطت على الأرض بعد أن عجزت عن مجاراته بكعبها العالي، وخطوتها الصغيرة بالمقارنة به، فتركها لتنهض، وأمها في حالة صدمة!

فنهضت العروس، وجرَت نحو منتصف الشارع دون حذائها، وقد تلوَّنَ فستانها الأبيض برمادية التراب، وأكملت رقصًا.. بينما الدموع قد أفسدت زينة وجهها، وأذابت الألوان على بعضها؛ فنظر لها العريس بغضب أكبر وتوجَّه لها؛ فوقفت أمها في طريقه؛ خوفًا على ابنتها، وقالت له إنها ستقنعها بالتوقف، وعليه هو أن يوقف فتى الأغاني، الذي بمجرد أن لمح العريس يتوجَّه له- ركض تاركًا أجهزته تصدح منها الأغاني الصاخبة الراقصة بلا توقف!

واندهش العريس لذلك، وبدأ يحاول أن يوقف الصوت؛ ولكنه عجز عن التعامل مع الجهاز، فبحث عن مدخل الكهرباء له، ثم نزع السلك بعنف، وانطفأ الصوت فجأة.. فنظرت له العروس وهي ترقص بدون نغمات بارتياح، وهي ترى الغضب قد حول ملامحه لشيطان مخيف!

ثم فجأة انطفأت جميع الإضاءة، وعم الظلام بشكلٍ مفاجئ مقبِض، وارتفع صوت اصطدام الكراسي الخشبية ببعضها، ثم صوت ارتطام كرسي بشيء- أعقبه صرخة ذكورية، وحفيف على الأرض ينخفض صوته تدريجيًّا.. ولكن بسرعة حتى ذاب تمامًا، واختفي!

أنير الشارع مجَدّدًا، ولكن بإضاءة أقلّ؛ ليجد من تبقى- العريس غارقًا في دمائه، بجانبه على الأرض كرسي مهشّم، وحذاء العروس العالي وطرحتها!!

تمت

البديل.. محمد أسامة أحمد سلامة

غرفة كأخواتها من غرف المشفى، تتشابه في أبوابها المرصوصة الماثلة أمام الممرّ إلَّا من رقمٍ يزيّنها، والداخل كذلك: دهان أزرق كئيب، سرير معدني أُلْقِيَ عليه مرتبة وغطاء من النوع نفسه، والصمت أيضًا متشابه.. اللهم إلا صوت التلفاز المشوش يداعبه، ويمازحه في الفينة والأخرى!

أقدام يقترب وقعها على أحد الممرات، يرهف المرضى السمع قليلًا، ومن ثم عاد كل منهم إلى ما يفعل؛ هذه الزيارة السخيفة.. لفيف الأطباء يجرون، وراءهم تلامذتهم، مجموعات تطوف الممرّات.. قدر هؤلاء المرضى أن يصيروا لعبة في يد هؤلاء السخفاء، فلا همَّ لهم إلّا سؤال وجوابٌ لملء ورقة مصيرها القمامة، سيأخذون عليها درجة، أو درجتين آخر العام!

يقف الطبيب "عمار" ذاك النحيف الذي يظهر من ملامح وجهه أنه في عقده الرابع، أو الخامس لا ندري؛ فقد وارى شيب رأسه، وحاجبيه بالحنّاء.. أمام مجموعته الناعسة يعدل قامته ويتنحنح، ثم يستدعي أحد فريق التمريض قائلًا بصوته الحادّ:

- كيف حال نزيل الغرفة رقم تسعة؛ لم نسمع له صوتًا منذ أيام؟!

طأطأ الممرض رأسه، ثم قال:

- حالته تزداد سوءًا؛ يرفض الطعام والماء!

عقد أنامله، ثم قال ساخرًا:

- إضراب إذن؟ ماذا فعلتم؟

- لا شيءَ مطلقًا؛ نحن لم نسمع صوته منذ أن حضر هنا!

- ألم تتحدثوا معه؟

- حاولنا، لكنه لا يقبل!

- والأدوية؟

- لا يأخذها، هي في السلة أمامك!

- إذن، أجبروه عليها؛ نحن مستشفى لا مأوى فقير!

-إننا... نخشى أن..

قاطعه "عمار" في حدة:

- تخافون؟! أتمزح معي؟! هذه المستشفى عالجت من هو أخطر منه وأسوأ، وتحدثني عن الخوف.. وجدتم شماعة جيدة تعلقون عليها فشلكم الذريع!!

حاول صاحبنا أن يضع أسبابه، لكن- كعادة المتحذلق- تجاهله، ثم سحب واحدًا من المجموعة وصاح:

- ستحلها أنت يا ولدي، هيا.. تقدّمْ، ولك ما تريد.

أيكون عليه الرفض؟ قطعًا لا، بوسعه أن يوقف قدميه السائرتين ناحية الباب، بيد أن ابتسامة "عمار" تحمل بين طيّاتها- الويل لو توقّف خطوة واحدة!

فاسترجع الفتى، ثم دلف الباب:

- الدواء سيدي، طهور إن شاء الله.

قالها الفتى وهو يرتعش؛ فرفع المريض الجالس رأسه يرمقه، ثم قال بحِدَّة:

- لا أريد، ضعه بجانب إخوته!

- بدونه ستتأذى!

قال ساخرًا:

- أنا في الحالتين معذب أحمل الأذى!

جلس بجواره مربتًا على كتفه:

- إن أردت الحديث، فتكلم.

نظر إليه نظرة خاوية ما لبثت أن امتلأت بالشفقة، بادره الفتى ملاطفًا:

- تحدث بما لديك، كلّي آذان مصغية.

- أول مرة أسمعها!

أردف قائلًا:

- هب إن قلت، أتصدقني؟!

ازدرد لعابه، ثم أومأ برأسه فاستراح الرجل، ثم تنهّد قائلًا:

- تبدأ الحكاية من فكرة أضاعت عمري!

وقف، ثم تمشى وهو يقول:

- كانت في إحدى السهرات تحدثني بهذيانها، ظننتها الخمر لعبت بها وحسب، إلى أن قالت:

- ما رأيك أن نلعب لعبة؟ لعبة قديمة ستعجبك جدًّا، إن لم تَرُقْ لك، فتذكر أنني أحبها كثيرًا، عدها من بين قرابين العشق التي تقدمها، وستقدم أمثالها حتى تنعم برؤية بسمة على ثغري تسحر فؤادك، أثق أنك سترضى كما رضيت سابقًا، خاصة حينما تعرف المبتغى والمقصد؛ يا لها من فرصة نبيلة تفتدي بها مسكينة من هوة سوداء لا تعرفها!

أصابني الذهول مما تفوهت به، كان صمتي يدفعها للحديث أكثر، سهل عليها الكثير بصمتي، كنت الكبش الثمين تريد اغتنامه بأية حيلة! بينما هو.. هو لم يَدْرِ بشيء، يكفيه الشرود في عينيها الفيروزيتين ناظمًا الأشعار في حسنه!

صوت سعالي أربكها بعض الشيء، أخذت أقلب يدي قائلًا:

- وما القربان؟!

اتسعت حدقتاها، وتشنّج لسانها الرخو المسكين.. أصابه فيض الكلمات بلوثة؛ فباتت تتلعثم، وتضع كلماتٍ بلهاءَ تلو بعضها، أقطع ذلك قائلًا برفق:

- اهدئي؛ سأنفذ ما تريدين!

ولما انتهى- تقبض وجهه، وأخذ يضرب وجهه صارخًا:

- ليتني ما فعلت! ليتني ما أقدمت!

وبين ذلك، يقف الفتى.. يتقاطر عرقه على الأرض من يده، يودّ لو جلس بجواره يشاركه النحيب، وذرف الدموع، وكلٌّ يبكي على ليلاه!!

لم يمضِ كثيرٌ؛ فقد تمالك الرجل نفسه، ثم التفت إلى الفتى، وقال بجمود:

- كان الأمر بسيطًا حقًّا.. تبادلنا الأدوار فقط!

- ماذا تقصد؟!

- كما الأفلام القديمة، أبله يترك حياته لأجل آخر يخشى على مستقبله!

قال الفتى بدهشة:

- عجبًا، لو كنت مكانك لـ..

قاطعه قائلًا:

- وما أضاعني غير هذه؟!!

-أهي مريضة؟

أومأ برأسه دون كلام، قطب الفتى حاجبيه غير مصدق لما سمع، ولكنه تظاهر بالجدّيّة صائحًا:

- كيف قبلت؟! أنت لم تضف في المعادلة شيئًا بهذا!

صمت الرجل يتجاهل سؤاله، ثم نظر إلى الفراغ، وقال:

- كانت بالنسبة لي كلّ ما أملك، لم أفز بمعارك الحياة قطّ إلّا بعينيها، أيكون العقل الغارق في الصدى سطوة إن ارتوى سمًّا!

سكت هنيهة يستعيد آلامه، يبثها في ملامحه المتغيرة كلما خطا خطوة، يتشارك في كل شيء فيها نظراته الساخرة على غفلته وندمه، لا تجرؤ السخرية أن تجتاز حدّ عينيه؛ لا يزال قلبه العليل يحمل راية العشق.. حتى إن انهزم من حوله!

نظر للشرفة، ثم قال بتأثر:

- قديمًا قالوا: إن أردت الحب- فلا بُدَّ من أن تهتم بالهيّن قبل الكبير؛ ففعلت.. بينما هي لم تكن تهتم حتى بنفسها. العشق، والبغض، والهجران، والوصل- أمامها أشياء مشوشة متشابهة، وسجيّة المرء اللعينة ملاصقة للاختلاف والمباهج، فتركها الجميع!

- وبقيت أنت؟!

- لأنني وجدت ما يبقيني، لا تزال تحتفظ ببراءتها مهما حدث!

لمعت ابتسامة الرجل أمام الفتى؛ فصنع أخرى بها ببلاهة، فتجهم الرجل، ما لبث أن قال الفتى خجلًا:

- صدقني؛ أنا لم أجرب مرور هذه البواعث من قبل.

أومأ برأسه، ثم استطرد:

- وهي أيضًا، لا أذكر كم مرة قالت: "طيب" أو: "مثل بعضه"- أمام كل هدية أتقرب إليها بها، ملامحها جامدة لا تعرف للحزن، ولا للفرح طريقًا! آلة لها عروق ولحم- إن شبهتها- ألححت عليها للذهاب إلى طبيب نفسي فتردني بأن الأمر لا يستحق؛ وأنه مجرد هَبّة من حزن ستنتهي، سأسامحها على هذه الكذبة!

قال الفتى باهتمام:

- ولكن، أنّى يكون للجامد شيء كهذا.. حتى ولو خاطرة هينة علينا؟!

- لم يكن عليها بهيّن، أخذتها معي لحفلة صاخبة، وتخيلت أن هذا سيفرحها، يا لغبائي! ويا لصبرها!

-اللعنة على الألسنة!

- أجل ألف لعنة!!

مسح وجهه ثم استطرد:

- حاولت جبرها بكلمات تهدِّئ من رُوعِها، حسبي أنني قلت:

لا تركني إليهم؛ هؤلاء يحسدونكِ، لو كنت مكانكِ لوطئت كلامهم تحت قدميّ؛ فكافأتني بهذه اللعبة، تجلس في عزلة في بيتها، وأنا أجلس هنا أتصنع ما تفعله من جمود، بررت لي ذلك بأنها تخاف من الوصم السخيف بالجنون، يالله! ما أشد صراخ قلبي حينها! كان يغويني للقبول، كاد البائس يخفف خفقانه لو طلبت روحي فوق البيع، وحدث ما حدث!

صاح باستغراب:

- أبهذه السهولة؟!

- قلت سابقًا إنك لم تجرب!

سكت الاثنان قليلًا، ثم بادر الفتى قائلًا:

- أتزورك هي؟

ضحك الرجل حتى كاد يسقط أرضًا، وصاح:

- يا رجل، ألم تقتنع بعد كل ما قلت؟!

قطب الفتى حاجبيه يجمع عقله المشتَّت، فاستطرد الرجل:

- وصلني خبر موتها قبل يومين باحتسائها حبوبًا منوّمة، الغبية تركت اللعبة دون أن تعرفني، ألفتت يدي فصار هذا موئلي!

جحظت عينا الفتى، وتبخرت الكلمات من عقله؛ لا يدري: أيرثي وفاءه؟ أم يواسيه على ما ضاع من أيامه؟! اضطر أن يتراجع بهدوء؛ فسمع صوته يصيح:

- سأشرب الدواء؛ لا تقلق.. اعتبرها مكافأة سماعك لي!

خرج الفتى وأقفل الباب؛ ليجد وجه أستاذه غاضبًا.. فلما رآه صاح:

- نسيت نفسك بالداخل؟!

تجاهله قائلًا:

- المريض تناول دواءه.

فتهلل وجه "عصام"، وقال:

- أرأيتم؟ مسألة سهلة جدًّا!

تمتم الفتى:

- لم تكن أبدًا!

عليكَ الانتظار.. محمد رحيم

حُمَّى، سُعالٌ جافّ، إرهاقٌ عام، يذهب للمستشفى للاطمئنان؛ يصرفونه برفق:حالتك مطمئنة، وليس لدينا أماكن شاغرة، اعزل نفسك في بيتك.

يذهب ويحاول الاتصال بالخط بالساخن المخصص لمساعدة المصابين بالوباء؛ يخبره صوت إليكتروني من خلال رسالة مسجّلة، أنهم سعداء جدًّا بمكالمته.. ولكن عليه أن ينتظر؛ فلديهم عملاء آخرون! ينتظر، فتعاد على مسامعه الرسالة، يغلق الخط ويعيد الاتصال، فيخيّل إليه أن الصوت الإليكترونى صار أكثر حِدّة، ويعيد على مسامعه بغلظة: سعداء جدًّا بمكالمتك، ولكن عليك الانتظار؛ فلدينا عملاء آخرون!

يعود لبيته، يستقبله الكلور والكحول.. فقد حاسة الشَّمِّ، ولكنهما يخترقان عينيه؛ تدمع عيناه، وتبدأ نوبة سعالٍ جديدة، زوجته صحبت أطفاله وغادرت.. البيت فارغ كروحها، كئيب كآبة الموت، وكآبة الحياة!

يأتيه اتصال هاتفى من زوجته: حبيبى، اعتنِ بنفسك، لا تحاولِ استخدامَ الكثير من المناشف، يكفيك اثنتان، اطمئن.. شدة وستمرُّ، سنتخلص من كل شيءٍ بعد مرور الأزمة؛ فحاولْ ألّا تستهلك الكثير، سأتصل بك من وقت لآخر، لا تتركْ ضوء الصالة مضاءً دون داعٍ؛ زادت أسعار الكهرباء، أغلق التلفاز قبل النوم، سيطمئننا الله عليك قريبًا، لا تغيِّر مفرش السرير.. إنه نظيف، لن أخبر أحدًا بمصابك.. حتى أمى لا تعرف، أخبرتها أنى تشاجرت معك وأنك غاضب؛ فلا تحاول الاتصال، إن اتصلت هي- أرجوك لا ترد!

افعل هذا حتى لا تطردني مع أطفالي، تعلم أنها تخشى الوباء، وستظن أننا نحمله، لا حول ولا قوة إلا بالله! لديك خبز وطعام يكفيك لأسبوع، ويمكنك بعدها أن تتصل بالبقال، الصابون فى الحمام، ولاتنسَ نزع قابس السخان، الحرارة مرتفعة، وسيتلف كالسخان السابق، لا إله إلا الله، لا تنسَ.. لا نزال ندفع أقساط السخان الجديد، حاول أن تقلل من التدخين، لديك مصاريف كثيرة، وعلبتان الآن فوق الطاقة، يكفيك علبة واحدة، أو حاول أن تتوقف عن التدخين نهائيًّا؛ هذا أفضل..

حبيبي، ألف سلامة عليك، أنا لم أتوقف عن البكاء منذ عرفت الخبر، حاول قدر الإمكان ضغط نفقاتك، لا أحد يعلم ما يخبئه الغد، أمي تظن أنك ضربتني، وأخي الصغير أخبرني بأنه قادر على تلقينك درسًا قاسِيًا، وضربك علقة ساخنة! هههه، أضحكنى الفتى برغم أحزاني!

حبيبي، لا تفكر حتى في فتح غرفة الأطفال، ليس بها شيء يخصك، وتعلم أنهم أغلى ما لديّ، حبيبي، لِمَ لا ترد؟! أهناك شيءٌ يقلقك؟!

كان قد ملَّ من سماعها، دائمًا لا تتوقف عن الكلام إلَّا لتحصل على إجابة أو نقود، يودّ أن يخبرها بأنه قلقٌ وخائف، بل يقتله الرعب!

يودُّ أن يخبرها بأنه بحاجة إليها الآن أكثر من أيِّ وقت مضى، وجودها وحده مطمئن، اهتمامها الحقيقي مطمئن، لم يكن أيّ وباء ليقتله لو أنها بقيت بجواره.

آه، لو كانت هي التي أصيبت؛ ما كان تركها.. لن يبقى بدافع الحب، سيبقى بدافع الواجب، كان سيشفق عليها شفقة حقيقيّة برغم كلّ شيءٍ، ولو كان أحد

أطفالها الذى أصيب- ما كانت هي لتتركه! ياه، كم يحتاج لأمه اليوم! ما كانت لتتركه أبدًا.. للأسف، إنها زوجته وليست أمه!

يرد: - كلا أنا لست قلقًا؛ كلّ شيء بقدر.

تتنهد بارتياح.. حسنًا، هل تريد شيئًا؟ ولا تنتظر إجابة.. سأعاود الاتصال بك، سلام...

يحاول فعل شيء، ولكنه لا يجد ما يفعله؛ صداع رهيب، رغم أن الأفكار جعلت من رأسه حلبة (هارد كور).. ألم، وضغط فى الصدر، يضيق صدره كضيق الكون فى عينيه، يختنق، تنتابه الشفقة على نفسه، وتنهمر دموعه!

يفكر فى الخروج.. سيذهب لقسم الشرطة، يدّعى أنه صاحب توك توك وسرق، سيطلب عمل محضر، وسيخبره أمين الشرطة المكلف بعمل المحاضر- أنَّ عليه أنْ يستأذن الضابط أوّلًا، وكأنه ليس من حقه أن يشكو شيئًا، أو يشكو أحدًا!

سيتنفس فى وجه الشرطى، وسيذهب للضابط الذى رقعه على قفاه يومًا ما دون سبب وجيه! وسيرجوه، وينحني ويقبّل يديه، ثم ينحني أكثر، ويمرمغ أنفه فى ركبته، وسيركله الضابط بقدمه فى صدره، ولكنه سيسمح له بعمل المحضر!

هم لا يهتمون بسرقة التكاتك، لو كان قتل فيه لاهتموا وجلبوا القاتل، لكن السرقات لا تهمهم، سيكتبون المحضر على كلّ حال، وعندما ينصرف سيقذف به الشرطيُّ فى سلة المهملات؛ لأنه لن يكرمش للشرطي فى يده ورقة بمائة جنيه!

سيحاول الاختلاط بأكبر عدد ممكن من رجال الشرطة قبل أن ينصرف، هو أهابهم كما تهاب أنت الموت، وكرههم بشدة.. بالرغم من أنه لم يكن من

الخارجين أبدًا عن القانون، لكنه كان يلاحظ احتقارهم له، ولم يكن قادرًا على مبادلتهم نظرات الاحتقار نفسها! الآن جاءته فرصته للانتقام، وسيستثمرها على أفضل وجه!

سينصرف، ويمرّ بالجزار الذى رفض أن يبيع لطفلة أمامه- عظم الركبة؛ لأنها ليست من زبائنه، ولا تشتري منه اللحم.. يومها قال للجزار:

- لو معها ثمن اللحم ما كانت غبَّرتْ وجهها أمامك بطلب العظم!

ولكن الجزار قال :

- "أنا مش فاتح سبيل!"، أعطي العظم مجانًا، ولا أبيعه.. لكن، لزبائني على اللحم!

أه، لو كان يعرف الطفلة، ويعرف بيتها- كان سيمرّ عليها أيضًا، لينهِيَ بؤسها، وشقاءها الأبديّ، ويسلمها للعدم، هو أفضل لها من هذا العالم العفن!!

سيمرُّ كذلك بصديقه المقرَّب، رأه وهو يتأمل زوجته بنظرة شَبِقَة، وعليه أن يدفع ثمن نذالته!

هناك الكثيرون ممن يستحقون مروره، ما أكثر الأنذال فى هذا العالم! وما أكثر البؤساء كذلك! سيمر على بعضهم رغبة فى الانتقام، ويمر على البعض الآخر شفقة، تضيق أنفاسه أكثر، يحاول النهوض، ساقاه تخذلانه، يختنق ويموت!!!

تتصل زوجته فى الصباح ولا يرد، تنتظر وتعيد الكَرَّةَ فى المساء ولا يردّ، تتصل بالإسعاف ولا تأتى، يخشى الجميع الاقتراب؛ يُنْتِنُ ويتعفن، وتبدأ الرائحة الكريهة فى الانتشار، يحضر المسعفون بعد أسبوع، وبعدما ضج الشارع، يحملونه، ويلقونه فى حفرة، ويهيلون عليه التراب، يسكبون الكلور والكحول.. ثم يرحلون!

إن حدث ما حدث وأنا أقضي معظم يومي وأنا أحدق في المرآة وأحدث نفسي قائلة:"ماذا تغير في منذ تلك اللحظة، أهو الحب، وهل لمثلي الحق في أن تحب أميرًا"؟!

أكاد أشعر بأني لم أعد أنا، وأسأل نفسي، ماذا تغير في ساعتها، أنا كما أنا (سندريلا) الفقيرة، لا، لم أكن أنا ساعتها، وقتئذٍ بفستاني الرائع وحذائي كنت أميرة، عندما ارتديت فستاني قررت أن أجوب المدينة كلها قبل أن ينقضي الوقت، أنا في حقيقة الأمر أحفظ تفاصيل المدينة، لكن في تلك الليلة رأيتها رؤيةً مختلفة.

فقد كانت المدينة أروع وأجمل من ذي قبل، وكأن عيون الأمراء تختلف عن عيون الفقراء، وكأن المدن تتزين للأمراء وتظهر وجهها الخشن للفقراء.

أردت ساعتها أن أرى وجه مدينتي الجميل، وظللت أجوب المدينة حتى رأيت القصر، ووجدت قدمي -أو ربما حذائي- يقوداني إلى داخل القصر.

ولم أدرِ إلا وأنا في حضنه أتمايل معه في رقصته كأننا جسد واحد.

ومر الوقت، وحان الوقت، وركضت حاملة طرف فستاني بيدي، وهربت.

قطع حبل أفكار سندريلا جلبة سمعتها خارج غرفتها، فوضعت أذنيها على باب غرفتها لتسمع ما يحدث.

الحارس:

- ائت لنا بكل الفتيات في تلك الدار.

زوجة الأب:

- لدي بنتان، جميلتان، ذكيتان، رائعتان.

قاطعها الحارس:

- ائت بهما على الفور.

ولم يجد الأمير ضالته في الفتاتين، هنا تمتم الأب قائلًا وهو يشير إلى غرفة ابنته:

- هناك.

قاطعته زوجته قائلة:

- لا يوجد هناك شيء.

ظهر الشك على وجه الأمير:

- ماذا هناك، هل توجد فتيات أخرى؟

قالت زوجة الأب:

- لا، لا يوجد سوى الخادمة، وهذه لا تليق بمجرد تفكيرك فيها سيدي الأمير.

صاح فيها الأمير:

- هذا شيء لا يخصك، ائت بها أيها الحارس.

جاء الحارس بي وأنا أرتعد، خائفة من أن يراني الأمير على حقيقتي، كنت أتمنى أن يظل الحلم حلمًا، ما دام جميلًا.

كنت أخاف أن ينقلب الحلم كابوسًا والتقت عينانا للمرة الثانية، أأقول للمرة الثانية! لا، بل هي المرة الأولى، فأنا من وقتها وأنا نظري متصل به، أكاد لا أرى سوى وجهه.

تقدم نحوي، لو أصغى سمعه لسمع دقات قلبي.

بادرني قائلًا:

ـ لماذا هربتِ، أتعلمين كم أجهدتيني بالبحث عنك؟

قلت له هامسة:

ـ خفت، أردت أن أحتفظ بذكرى جميلة، حتى لو كانت قصيرة، ذكرى أحيا عليها مابقيت.

قال لي بلهجة يملؤها الحب:

ـ أما تحبين أن يكون العمر كله جميلًا، أما تحبين أن يكون العمر كله ونحن معًا.

أجبته:

ـ وهل لمثلي أن تكون مع مثلك، هل لقلبي أن يسعد بحب من قلبك؟

لم يجبني، بل جثي على ركبتيه ثم أمسك بقدمي ليلبسني حذائي المفقود، ثم احتضنني وخرجنا معًا، وهو يهمس في أذني قائلًا: سنحيا معًا إلى آخر العمر يا أميرتي.

تمت

جهنم الأرض.. حورية الجمل

لا شيء يبقى كما كان، ولا شيء يعود كالسابق.

هكذا وصفت تلك التجربة القاسية التي مررتُ بها بكامل رغبتي، لقد غسلت ذنوبي في الأرض، وها أنا الآن على يقين تام أنني سوف أواجه وجه الله الكريم وأنا خالي من الذنوب، ربما هكذا أظن! حقًا لا أدري إن كان الله قبل قرباني أو لا، ولكن هل شخصًا مثلي فعل كل الكبائر التي ذكرت في كتاب الله الكريم أن يغفر الله ذنوبه بعدما يحرق نفسه؟!

نعم لقد أشعلت النار في جسدي وأنا أعرف كم الأضرار التي سوف تصيبني، فعلت هذا وأنا أرغب بأن أرى النيران تأكل لحمي وتجعلني أصرخ، ربما يتوقف عقلي عن التفكير في أشياء تبدو غبية، ربما تهدأ شهوتي قليلًا، ويتوقف جسدي عن جعلي أحتسي الخمر ليلًا ونهارًا والنيران لم تفعل هذا وحسب، بل أنها خلقت مني شخصًا آخر، كثير التسبيح والتفكير في الإله، لم أعد أشعر برغبتي تجاه ممارسة الجنس حتى أنني قد نسيت مذاق الخمر الرائع، باتت الحياة سوداء ولم تعد حياة! لم تعد كسابق عهدها ربما أنا من تغير، حقًا لا أدري متى حدث كل هذا، وكيف طرقت هذه الفكرة باب أفكار رجلٌ يعشق حياته مثلي، رجلٌ مُحب لشهواته، هل سئمت من فرط السعادة؟! هل للراحة أضرار تسمى البحث عن الألم؟! لا أدري كيف أصبح قلبي جامدًا لهذه الدرجة!! كيف أمسكت يدي بالجاز ووضعته على كتفي وأقدامي كيف أشعلت الكبريت ونظرت إلى لنيران وهي تلتهمني عبر المرآة، ها أنا الآن بين الحياة والموت أصرخ

ألمًا، وليت الصراخ يتمدد ويخفف هذا الألم حتى ينتهي احتراقي، أنا بين يد الألم أتحسر عما حدث.

أحقًا كنت أفعل هذا بسيجارتي! كنت أحرقها بقسوة، كنت أشعل النار للطهو، ومظهر يداي يشبه قطعة اللحم النَضِج، وهو موضوعًا على طبق زجاج أبيض اللون، لا أعرف ماذا يدور بخلدي الآن لكنني حتمًا سوف أصاب بالجنون.

إن وجهي لم يعد له ملامح أصبح أحمر اللون بِه فقاقيع وأشياء عدة، لا أعرف لها مسمى، لكنني لا أشعر بالندم، لقد انتهت حياتي، ولا أعرف لماذا فعلت هذا بجسدي، هل كنت أستحق كل هذا الألم والمعاناة؟ هل سيغفر الله ذنوبي بعدما اغتسلت بالنيران؟!

توقف عقل (هشام) عن التفكير حين دلف الطبيب المسؤول عن حالته، تقدم الطبيب نحو مريضه بهدوء وهو يتأمله بأسى، فإن حالة مريضه تزداد سوءًا كلما دقت عقارب الساعة، أخذ (هشام) نفسًا عميقًا ثم تمتم بصوت غير مفهوم:

ـ دكتور أحمد! أهذا أنت؟

لم يكن (هشام) يرى ما حوله، ولم يكن يستطيع التحدث جيدًا من أثر جهاز التنفس الصناعي الموضوع بداخل فمه، حتى يجعل الهواء يصل إلى رئتيه.

اقترب الطبيب منه وجلس بالمقعد القريب للسرير، وقال:

ـ نعم أنا هو دكتور أحمد، كيف حالك الآن يا هشام؟ هل الأمور تبدو جيدة بعد الجراحة؟

حاول (هشام) التبسم لكنه لم يستطع فاكتفى بنظرات عميقة مليئة بالسخرية، حرك عيناه إلى اليسار ليرى ذات الهيئة السوداء، تحدث بصعوبة قائلًا:

ـ جيدة!! هل تمازحني؟ أنا أتعذب آلاف المرات في الثانية.

قاطعه الطبيب موجهًا:

ـ تتعذب؟ إذن لماذا فعلت هذا بنفسك، لم تكن تعرف أضرار فعلتك أليس كذلك؟

ـ لا بل كنت أعرف نتيجة أفعالي، حتى أنني لستُ نادمًا عما فعلت، لستُ نادمًا صدقني، وإذا عاد الماضي لفعلت ذاك الشيء، أنا أستحق كل هذا، أنا حقًا أستحق.

صمت الطبيب، وظل يتأمل جسد (هشام) الملفوف بشاش أبيض ملطخ بالدماء أثر الجروح التي احتوت على سبعين في المئة من جسده، وعم الصمت لثوانٍ معدودة مرت كَالسنوات العجاف على (هشام) مال برأسه يمينًا، وانقطعت أنفاسه ثوانٍ ثم عاود التنفس مجددًا.

ـ سوف تموت خلال هذا الأسبوع يا هشام، لا خيارًا آخر لك حالتك سيئة للغاية، ورغبتك في التعايش ليست إلا عذابًا عليك وعلى من حولك.

نهض الطبيب من جلسته واقترب من جهاز التنفس ثم أكمل حديثه:

ـ هل تظن أن عذابك هنا بالمشفى سوف يخفف عذابك يوم الحساب؟

هل ترى بفعلتك تلك سيغفر الله ذنوبك؟ أنت أحمق يا هشام لولا معرفتي بك مسبقًا لاتهمتك بالجنون، ولكنني أدرك أنك بكامل قواك العقلية، ولهذا سوف أنقذك من هذا العذاب الذي تحيا به.

قال (هشام) بصوت خافت:

ـ دكتور أحمد أنت تعرف جيدًا أن ما أنا فيه هو عذابي في الأرض خيرًا لي من هذا النعيم، أنا أحيا لأنعم بمتع الحياة وهذا يثير قلقي حيال عقاب الآخرة، اتركني يا دكتور أتعذب وأنا راضي عن حالي، لقد مضيتُ ثلاثين عامًا في حياة هانئة ليس بها أي متاعب ولا نازِلات! أحيا كمن يحيون في النعيم، كل أمنياتي ومتطلباتي مستجابة وكل ما أرغب به أفعله بلا أي قلق من الناس، ولا القانون، ولا حتى أسرتي، كنت أخشي الله كثيرًا، ولكن ولا مرة فعلت شيئًا لأجله، ورغم هذا قد كان حنونًا عليّ وأعطاني كل شيء على الأرض، قد رزقني بالجنة في الأرض وبنى لي قصرًا في النار، أنا أعرف هذا جيدًا لذلك يجب عليّ أن أعاني بعض الشيء.

أنهى كلماته وبدأ جسده بالارتعاش من شدة الألم وكل ما يشعر به هي نيران تأكل عظامه وتتوغل في عروقه.

اغرورقت عين الطبيب بالدموع قائلًا:

ـ لا أستطيع أن أراك تتعذب وأظل أترقبك، وليس بيدي ما أفعله لإنقاذك، لا أستطيع أن أرى والدتك تتعذب حين تراك، حتى أنني لا أستطيع تركك تتعذب هكذا، وفي كل الأمور أنت ميت! هشام ما سوف أفعله الآن ليس إلا شيء بدافع إنساني لأجلك، ربما تشكرني على هذا لاحقًا، إن الإنسان يبحث دائمًا عم هو موجود أمامه فبأي عقل نبحث عن النور في كل ما هو مظلم! وبأي منطق يا هشام تبحث عن الراحة تحت شمسٌ يحجبها طيرٌ أبابيل! فإن الحياة تكون على صراطً مستقيم، إذا أدرك الإنسان ماذا يكون، وماذا يجب أن يفعل،

فكلما زاد الوعي تعددت الاختيارات، فإن عدم إدراكك هو من أدى بك إلى هذه النهاية.

أنهى الطبيب حديثه ونشأ بداخله صراعًا بين شخصين؛ شخصًا يشفق على حالة (هشام) ويرى أنه يستحق فرصة أخرى في هذه الحياة، و شخصًا يرى أن كل ما لهُ في هذه الحياة قد نفد.

لم يأخذ هذا الصراع إلا ثوانٍ معدودة تخطاها الطبيب بابتسامة هادئة ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأطفأ جهاز التنفس الخاص بـ (هشام)، لم تمر دقيقة ارتعش بها جسد (هشام) محاولًا المواصلة في التنفس لكن بلا جدوى، فقد قدرته على التواجد في هذه الحياة، وطافت روحه وهي تتأمل جسده للمرة الأولى منذ أن أشعل النار بِه.

**

سامحني يا الله لم أستطع أن أصبح عبدًا صالحًا، لم أستطع أن أبتعد عن المعصية وعن شهواتي، سامحني أرجوك واغفر لي ذنوبي، لقد أنعمت عليّ بكل النعم رغم معصيتي لك! لم تعاقبني، وهذا قد زاد قلقي حيال النار التي سوف أسكنها يوم الحساب!.

أمسك زجاجة الخمر وأخذ رشفة سريعة، ثم اتجه إلى لمرحاض، وبلا تردد وزع الجاز على جسده وأغمض عيناه متذكرًا ثلاثين عامًا من المعصية وفعل الكبائر، وكل رجائه أن يتذوق النار على الأرض خوفًا من نار جهنم.

تمت

استثناء يلغي القواعد.. تسابيح طارق

قالَت بعد أن خنَقتها عَبراتها التي تُقاوِم نُزوحهَا إلى وجنتيهَا:

ـ حسنًا لقد ضِقتُ ذرعًا، الحُبّ لا يجمَع المُختلِفين كما كُنتَ تهذِي، صدّقنِي لن تتنَاسب غطرَستك وقسوتُك مع هشَاشتِي، لن يتنَاسب ذوقِي الكلاسِيكِي مع الذي تَدعُوه بالذوق الرّفِيع!

أطلَق تنهِيدةً وكأنّه يطلبُ منها أن ترأف به قليلًا، ثمّ قال بوجهٍ مُتجهّم: لكنّني أحبّك ألا يكفِي هذا؟

ـ أخبرتُك أنّ الحُب لا يجمعُ المُختلفِين بَل المُتشابهين! قُل لي بربّك هل يجتمع النور والظلام معًا؟ أم هل تَجتمع النار والثلج معًا؟ هل سمِعت بمُتضادّين غَدَا حبِيبين؟

قال وقد لانَت ملامِحه وارتَسمت ابتِسامةٌ حزينةٌ على ثَغرِه:

ـ سأثبتُ لكِ يومًا عكس ذلك.

بعد مضِيّ أسبوعين على فِراقِهما، الهدوء يُخيّم على المكان، عقَارب الساعة تُشير إلى الخامسة والنّصف مساءً، كانت تُحملِق في الفَراغ بعينين حائرتَين، ووجهٍ شاحِب.

فجأةً يُقاطِع شرودها صوتُ رنِين جَرس الباب، تنتَفِض كمَن كان يَغُطّ في سُباتٍ عميق وفجأةً أُفرِغ عليه دلو مَاءٍ بارِد.

مرحبًا سيّدتِي، وصلكِ طردٌ برِيدِيّ، وَقّعي هُنا إذا سمَحتِ.

ككلّ يوم مُغلّفٌ بداخِله رسالة، ولا شَيء الورقة فارِغة كما اعتَادت، أطلقت تنهيدةَ ضَجر، وألقَت بالمُغلّف مع كومة رسائلٍ أخرى تحتَلّ الطاوِلة، ومن ثمّ التَقطت هاتفها المحمُول وضغطت على أزراره بعصبيّة بالِغة.

على الجانب الآخر، أضاءت شاشة هاتفه مُعلنةً عن وصول رِسالة جديدة "توقّف عن إرسال الأوراق البيضاء الفارِغة، أعلمُ أنّك لا تملِكُ شيئًا لتقُوله، لذا أوقِف هذه الحماقة"

لاحَ على شفتيه شبَح ابتسامَة كمَن انتَصر أخِيرًا في حَربٍ دامِية، اقتَرب من مكتبتِه الخشبِية وأخرجَ حُزمة أوراقٍ ومِن ثمّ التَقط القلَم من على سَطح مكتبِه بحركَةٍ بهلوانِيّة، وشَرَع يكتُب: "صغِيرتِي، أو دعيني أناديكِ حُلوتِي كما يروقُ لي، أعلمُ أنّ الدهشَة ستُصيبكِ كَونَ هذه الرِسالة ليسَت فارِغة كما الأخريَات، ولكِن دعِيني أخبركِ شيئًا سيَزِيد من دَهشتكِ، تلك الأوراق التي كنتِ تَنعتينها بالفَارِغة كانَت مُكتظّةٌ بكِ، كانت مملوءةٌ حبًّا ودمُوعًا وشوقًا، لكن الفرق أنّني استَخدمتُ في كتابتِها قلمًا أبيضَ اللون، أتذكرِين حين أخبرتنِي يومًا بأنّ الحُب يجمع المُتشابهين؟ إذًا ما بال القلم والورقة الأبيضَين لم يَتناسبا معًا!

هل أخبركِ سرًّا؟

الحِبر والورَق هما في الأصل حبيبين، حبيبين مثلنا، أنتِ يا حُلوتِي تُشبهين هذه الوَرقة، نقِيّة، صلِبة كالشجَرة التي صُنعت منها، هشّةٌ وحادّة كأطرافِها.

أما عني فأشبُه حبر هذا القلم الأسود، مُظلمٌ، قاسٍ، رمادِيّ، كئيب، ولكِن هذا القلم الكئيب وَجَد لحيَاته معنى حِين تعثّر بقلبكِ المُتخّم بالبَياض، وإن

كانَت كلّ قوانين الطبِيعة تَحكُم بألّا تجتَمع نقائضُ الأشياء معًا، فلنكُن الاستثناء الذي يُلغِي القَواعِد يا حُلوتِي"

المُتغطرِس الذي يُحبّكِ كثيرًا.

تمت

القطار.. عبد الله حجازي

في محطة سكك حديد مصر، قطار أسوان القاهرة الركاب يدلفون عبر بوابات القطار، التعب والإرهاق يلف جسمي الصغير، أكاد أسقط وأنا أدفع نفس، أحمل فوق كتفي حقيبة، أعلق بها ملابسي، وبعض أمتعتي وأدواتي التي لا غنى عنها في كل رحلات سفري، ففي الحقيبة كتب وأوراق وأقلام لا يخلو سفر منها؛ فقد تراني أقرأ كتاب أو ترد عليّ فكرة أسطرها في الأوراق، هذا بالإضافة لمتابعة الأخبار على شاشة المحمول، أو الرد على بعض الصفحات، سرت في الطريق وعلى جانبي الكراسي الخشبية التي بدت شبه خالية وربما يسير القطار هكذا حتى يصل إلى سوهاج أو أسيوط، فيكون قد امتلأ عن آخره، فإذا ما حاول بعد ذلك أحد الركاب الوقوف في الطريق، فيضايقه البائعين في القطار، ويزاحمه الآخرون في الوقوف، ويتدافع عليه العابرون في الطريق، قد يحالف الحظ الراكب فيصعد على الرف ويجلس عليه، أو يتمدد، ويزداد حظه إذا ما انفرد بالحمام، فيصعد على حوضه وعلى الروائح الكريهة، ينفث سيجارته فتختلط الروائح بالروائح، وكأنها ترعة صرف اجتمعت فيها الموبقات، سرت بحقيبتي وتوقفت عند كرسي أفضل شيئًا متانة وصلابة ودهان، وضعت حقيبتي على الرف، ولم أنتبه لهذه السيدة الملتحفة بالسواد وهي تحتضن طفلًا تغطيه، يبدو أنه نائم، لاحظتها ألقيت عليها السلام، هتفت بصوت لم أفهمه ورأيتها أومأت رأسها، ثم ضمت الطفل بخوف، تجاهلت ذلك أو لم يشغلني هذا الامر كثيرًا، فمن عادة الأم أن تضم طفلها الرضيع تحسسه بالحماية أو

تلقمه بثديها، فيشعر بأمه وعاطفة الحنان التي يرضعها مع قطرات اللبن الساخن التي تنزل عليه من حلماتها وضعت حقيبتي وجلست، نظرت عبر النافذة أتأمل المسافرين الجالسين في المحطة، والذين يدلفون عبر بوابات القطار والمنتظرين في صفوف نوافذ الحجز والباعة في الأكشاك المنتشرة على الرصيف، سمعت صوت القطار معلنًا بدء التحرك، وبالفعل بدأ التحرك في رحلة طويلة تتعدى مئات الكيلو مترات بدا القطار هادئًا، ثم اشتدت سرعته حتى سمعنا طرقعة العجلات وهي ترتطم بالشريط الحديد، زادت سرعة القطار، ومر الوقت بطيئًا، رمقت السيدة فلاحظت أنها مستمرة في احتضان الطفل وعلى وجهها علامات من القلق والخوف الشديد دون أن أعرف السبب سألتها:

ـ هل تخشين شئيًا؟

ـ لا، لا.

سألتها:

ـ هل طفلك بخير؟

قالت:

ـ نعم، هو بخير، لا شيء فيه.

سألتها بغرابة:

ـ ولكننا منذ تحركنا وحتى الآن ما يقرب من ساعة تقريبًا، وطفلك لا يتحرك؟ هل هو بخير؟ لاحظتها تضم طفلها وقد أزعجها سؤالي، فزفرت بغضب وهي تردد:

- قلت لك، هو بخير، بخير، ألا يكفي؟ اعتذرت من السيدة وأنا أحاول تهدئتها قائلًا:

- يكفي يا سيدتي، لا تؤاخذيني، بعتذر لكِ، أنا فقط ما أردت إلا أن أطمئن فقط على الطفل، لا أكثر حاولت أن أتجاهلها تمامًا، فنظرت عبر النافذة فمرت محطات صغيرة، ورأيت الأشجار والبيوت تتحرك، فتمرق في سرعة، القطار اقترب من محطة إسنا، زحف الليل كأنه وحش أسود لف بأذرعته البلاد، فاسودت النافذة لظلامه، فلم أعد أرى إلا ستار أسود وأشباح تجري، فلما تنتهي تظهر البيوت بأباصيص اللمبات الكهربية الصفراء، والبيضاء الموفرة تارة أخرى، شعرت بالجوع فامتدت يدي إلى حقيبتي على الرف وأخرجت كيس الشطائر الذي ابتعته من المحطة وأبديت كرمي للمرأة فمددت لها شطيرة فعادت لحالتها المريبة، وهي تضم الطفل وترفض قائلة:

- لست جائعة، شكرًا لا أريد طعام.

تراجعت دون أن أقسم عليها وغيره، فالمرأة في وضع يثير الريبة، تناولت الشطائر، وانطفأت فجأة إضاءات القطار، اللمبات الصغيرة التي تضيء العربة، انطفأت فجأة فأظلمت العربة والتفحت بسواد الليل خارج النافذة، تصاعدت سرعة القطار، فاختلطت مرتفعًا بصوت ارتطام العجلات بالشريط الحديدي مع صوت صفارات القطار المتواصلة، تناولت الشطائر كان القطار قد تعدى مدينة إسنا، ومرت محطات صغيرة وبعض القرى، ثم ظهرت عن بعد أنوار كشافات وعمارات فيبدو أننا نقترب من محطة الأقصر، الأشجار تجري وها هي وأنوار البيوت تقترب شيئًا فشيئًا، هدأ القطار من سرعته وقد

ظهرت مباني مدينة الأقصر المضيئة، وشوارعها المتسعة وكشافاتها الضخمة التي تضيئها، وأسواقها العامرة المكتظة بالناس، إنها مدينة سياحية جميلة، ما زال القطار يهدأ شيئًا فشيئًا حتى توقف على المحطة، امتلأت العربة بأضواء المحطة، نظرت إلى المرأة فلم أجدها تُرى أين ذهبت؟ نظرت في العربة فإذا هي جالسة على مقعد بجوار الباب ومعها طفلها، فلماذا تركت مكانها؟ تُرى هل أنا أزعجتها لهذه الدرجة؟ لا أدري حاولت تجاهلها، تناولت زجاجة مياه كانت بجواري فتحت السدادة فإذا بها تقفز من يدي لتستقر عند مقعد المرأة، انحنيت لألتقط السدادة فوجئت بمنظر أرعبني، قطرات دم تحت مقعد المرأة، أي دم هذا؟ كان الدم حديث، حديث جدًا، انتفضت واقفًا، اقتربت من مقعد المرأة رويدًا رويدًا، حتى وصلت إليها، رمقتها بنظري فإذا هي ترتجف وتحتضن الطفل في خوف شديد سألتها:

ـ لماذا تركت مقعدك يا سيدتي؟ أخذت تضم طفلها أكثر وأكثر وهي تقول:

ـ أحببت أن أرضع طفلي و، قاطعتها: وهل رضع؟ كيف حاله الآن؟

قالت وهي مازالت ترتجف:

ـ هو بخير، بخير.

أردت أن أتحقق مما دار في خلدي فسألتها بحدة:

ـ أريد أن أراه، أحب أن أطمئن عليه.

أزعجها السؤال فأخذت تحضن الطفل أكثر وهي تردد، هذا شيء لا يخصك، إنه طفلي.

قلت في نفسي لابد من أن أريح نفسي، وأتحقق من الأمر، فاقتربت من السيدة، فزحفت بظهرها إلى آخر المقعد، فاقتربت منها وفي حركة بهلوانية رفعت الغطاء عن الطفل وصدمني المشهد، إنه طفل ميت مبقور البطن مخيط بشريط الكتان، كانت مفاجأة مرعبة فصرخت في الركاب، إنه قتيل، قتيل، فانتبه الناس لصوتي وانتفضوا، وفي الوقت نفسه ألقت المرأة الطفل على الكرسي، وحاولت الهروب فأمسكت بتلابيبها ومازالت تحاول الفكاك ولكنني منعتها وجاء الركاب، التفوا حول المرأة وقد حملقت عيونهم وهم يشاهدون الطفل المقتول.

أمسكنا المرأة وسلمناها إلى الشرطة، توقف القطار ولم يتحرك حتى تم التحقيق معها، وتبين أن الطفل مبقور البطن ومفرغ الأحشاء تمامًا وبداخله أكياس مخدرات!! ما أصعب هذا الموقف طفل برئ يفعل به هكذا من أجل أطماع أناس لا يعرفون ربًا ولا دينًا، حتى البراءة قتلوها، عدنا إلى لقطار والمرأة والطفل لا يغيبان عن نظري. تحرك القطار، واختلطت طرقعة العجلات بالشريط الحديدي مع صوت صفارته بصورة المرأة، وصورة الطفل تجسدوا أمامي في ظلام النافذة المرأة المذعورة والطفل بعيونه الجاحظة وبطنه المبقورة.

تمت

فوجئت به وأنا أتسلم من زميلي مناوبة رعاية القلب ذلك اليوم، ربما أكون قد فقدت ملامح وجهه لكن لا تزال تفاصيل جسده الضئيل في ذاكرتي، كان فتى لم يكمل بعد عامه الثالث عشر لكنه يبدو في الثامنة، نحيل جسده من جراء مرضه، كان مصابًا بضعف شديد بعضلة قلبه الصغير، ربما كان بسبب فيروس كما نقول -معشر الأطباء- أو أن قلبه الغض لم يتحمل قسوة ما لاقاه في حياته القصيرة تلك.

رباه! كنت أظن أني تجاوزت تلك المدة التي أضطر فيها أن أشاهد أطفالًا يعانون في الرعاية المركزة، حدث ذلك بعد أن قضيت معظم سنة الامتياز في رعايات الأطفال وحديثي الولادة الموجودة بالقصر العيني، ثم عملت في بعض رعايات حديثي الولادة الخاصة قرابة العام. ثم قررت تغيير التخصص إلى أمراض القلب، لماذا؟

حسنًا عليك أن تقضي بعض الوقت في إحدى رعايات حديثي الولادة القريبة منك لتدرك السبب، إمكانيات متدنية، أطفال يموتون بسبب عدم توافر دواء للرئة ثمنه قد ينفقه أحد الأغنياء في عشاء، آباء وأمهات ترى في أعينهم تحطم آمال سنوات طال فيها انتظار طفلهم الأول لتكون أنت من تخبرهم أن وليدهم الغالي قد توفي.

كان الأمر يفوق احتمالي، وكان لي شغف بأمراض القلب، وظننت أني بذلك أبتعد قليلًا عن تحطيم قلب أم شابة تنتظر طفلها التي حملته ثمانية أشهر أو نحو ذلك.

كما يقال، في الأغلب إذا دخل رجل كبير إلى الرعاية وخرج سليمًا معافى، فإنهم ينظرون إليك كأنك بطل، أما إذا خرج إلى قبره يسترجعون ويقولون جاء أجله، لم يكن الأمر كذلك في طب الأطفال وحديثي الولادة، نظراتهم كانت تقول لك أنك أنت من قتلته.

نعود إلى صغيرنا، كان المسكين يعاني اضطراب بضربات القلب من النوع المميت نتيجة للضعف الشديد الذي أصاب قلبه، لم تهدأ هذه الضربات مع كل الأدوية التقليدية، استجابت فقط لدواء يستخدم أيضًا مخدرًا موضعيًّا، حمدنا الله على ذلك، لكن سرعان ما اكتشفنا الكارثة، لا يوجد لدينا ما يكفي لإتمام جرعة اليوم الأول، أرسلنا إلى الأهل في طلبه ولكنهم عادوا بخفي حنين!

ستتوقف الإبرة الكهربية عند الفجر، ظللت أتفقد الطفل كل ساعة، لم أهنأ بنوم في هذه الليلة المرهقة، بعد توقف سريان الدواء في أوردته بحوالي ساعة اطمأن قلبي قليلًا وتسلل النوم إلي عيني، لأستيقظ بعد نصف ساعة على صوت الممرضة تنبهني لتوقف قلب الطفل.

قمت بإجراء إنعاش لقلبه، كنت أرجو أن أرى أي حركة على الشاشة تشير إلى أن سبب التوقف هي هذه الضربات غير المنتظمة، لأعطيه صدمة كهربية توقفها، لكن لا شيء، سكون على الشاشة من النوع الذي يكرهه الأطباء، حيث لا شيء بيدك إلا أن تستمر بالضغط على صدره وأنت تفقد الأمل في

عودة قلبه إلى لنبض مع كل ثانية تمر، في المعتاد نوقف عملية الإنعاش في تلك الحالة بعد ثلث أو نصف ساعة، لم أستطع التوقف، ولم تجرؤ الممرضة أن تتفوه بكلمة، كانت تنفذ أوامري التي تخرج من فمي بصوت مرتعش ودموع تسيل على وجنتيها دون اعتراض، لا أدري إن كانت تبكي هي الأخرى أم أنها تراقبني في صمت.

في الأخير بعد مرور ساعة أو يزيد فقدت الأمل، والقوة، حسنًا لم أخبرك أني كنت أقوم بعملية إنعاش قلب الصغير والضغط المستمر على صدره وحدي طوال تلك الساعة، هذا أمر تعتاده بعد زمن في مستشفيات المحروسة، إما لقلة عدد الأطباء، أو لأنك لم تستطع إيقاظ زميلك في المناوبة بعد أن نام قتيلًا من تأثير عمله مدة يومين متواصلين أو يزيد، اعتدت أن أستأذن زميلي في المناوبة وأنام قليلًا في أثناء النهار تحسبًا لأي طوارئ ليلية.

في الصباح بدأ توافد الموظفين والزملاء من الطاقم الطبي، دائمًا ما يذكرني صباح المناوبات الليلية الصعبة بأفلام الرعب الأمريكية، يبدأ الناس في الذهاب إلى أعمالهم، وهم ينظرون نظرات استغراب إلى أبطال الفيلم، وهم منهكون والدماء تغطي ملابسهم، يتساءلون في غير اهتمام حقيقي عما حدث لهم في أثناء الليل، فلا يجدون إلا نظرات تائهة لا تقدر على وصف ما حدث وإن حاولت.

تفقدنا الشاشة المراقبة لنبض الطفل، لم يكن توقف القلب بسبب اضطراب ضربات قلبه كما كنت أظن، ربما إذا ليس السبب هو انتهاء دوائه، وإنما قلبه قد أُنهك تمامًا حتى قرر التوقف.

لم أقتنع حتى الآن أن توقف قلبه كان طبيعيًّا نتيجة مرضه، ما حدث أمامي هو أن قلبه توقف بعد توقف دواؤه قبل أن يأخذ منه كفايته.

لا أجد تفسيرًا إلا أن قلبه قد رفض الاستمرار بعد هذه الليلة الطويلة كاحتجاج أخير ضد قسوة الحياة على هذا الصغير.

تمت

ظلال الكرز.. هديل فرح

يراقب في صمت كئيب رقصة أخرى، ورقة من أوراق الكرز على سمفونية الخريف الحزينة.

عند التقاء الورقة والأرض فور تلامسهما تعزف آخر نغمات هذه المقطوعة الكئيبة، لينسدل الستار معلنًا نهاية آخر مقطع من معزوفة الخريف.

جالسًا على كرسيه المتحرك، في شرفة غرفته التي طالما احتضنت حزنه وعجزه، يعانق وجهه تعابير اليأس والقنوت، عينان تنمان عما تكبده من تصارعات قاسية، أغدقت على قلبه بالكثير من اللحظات الصعبة والمواقف الراسخة.

ها هو اليوم مصطفى يستأنس وحدته بعد سنين من النفور، فيجعلها طقسًا مقدسًا من طقوس يومه، يزيد بها هذا المنظر نوتة معاناة أخيرة يختتم بها مشهد الخريف، ها هو يستقبل الشتاء القادم باستسلام وانصياع.

مصطفى شاب يافع ذو عشرين ربيعًا، أجبرته الحياة على مجالسة الطبيعة من شرفته بعد حادث أليم تعرض له يرفض الإفصاح عن تفاصيله حتى لطبيبته النفسية، كان صغيرًا عندما اغتاله العجز، كان مراهقًا منغمسًا في اكتشاف العالم، يأبي إلا أن يجرب كل ما في الحياة.

لندع مصطفى يحكي لنا عن قصته، فسماعها منه يضفي عليها نكهة خاصة، ويحرك كل ما يختلج نفسنا، ليحي أنفسنا ويجدد الأمل.

أنا من دسّ لي القدر حادثًا جعل أسوأ كوابيسي حقيقة بسيطة، ترفض وقوعها لأكبر أعدائك، أنا مصطفى.

كنت عصفورًا يلحق في أفق الحياة يستكشف آفاقها وأراضيها، أصبت ببندقية العجز لأسقط جريحًا داميًا في هذه الشرفة، اخترت طريق الحرية، واختارت لي الحياة طريق السجن الأبدي على كرسي العاجز.

أجلس كل صباح في شرفة غرفتي أطل على الطبيعة وأحدق بها، أتأملها، ليحفظ ذهني هذا المشهد، أنا وشرفتي الرخامية البيضاء، أمامي فوق المائدة كوب قهوة، ورقة، قلم وأهم شيء زهور الكرز.

كانت هذه أجمل التفاصيل لقلبي، زهور الكرز.

أطل على هضبة مخضرة فيها مقعد خشبي، تسدل عليه شجرة الكرز ستارًا نسجته من زهورها خيطت بأغصانها، أشعر أحيانًا أن الحياة حرمتني حلم الاستكشاف والطبيعة كافأتني بمنظر تأنس له الأنفس.

لم أرقب شجرة الكرز ساعات، أيامًا أو حتى شهورًا، بل سنينًا لأقع لا إراديًّا في حب شجرة الكرز.

نعم أحببت شجرة الكرز، أحببت زهرة الكرز!!!!!!

شتاءً تكون عارية الأغصان تتمايل على ألحان الريح الشقية، أغار من قدرته على مداعبتها وأحزن لقبولها بغزله.

أتذكرها فأتذكر ما يجعله العجز ضائعًا مني، ما يحرمني منه، لقائها خارج أسوار هذه الشرفة لقائها دون قيود العجز اللعينة.

كنت يوما كئيبًا ككآبة الشتاء، متساقط الأوراق، محطم الغصون، منزوع الجذور، جثة على قيد الحياة، قد جاء ذاك الحادث كخريف قضى على كل فرحة

حملها كياني يومًا، أخذ كل ما يدب الحياة في أطرافي، حرمني من زهرتي، زهرة الكرز.

سجنت في شتائي، ظننته أزليا، . رضيت به كقدر محتوم لا مناص منه، استسلمت له خاضعًا ذليلًا فألقى بظلال سواده على كل شعاع أمل في حياتي.

بعد ما عانيته في خريفي، بعد عنفوانه في انتزاع كل أوراقي، جاء دور الشتاء، تساقطت ثلوج الكآبة والحزن على أراضي قلبي، فتجمدت كل قطرة في نهر مشاعري، دُفنت كل نبتة أمل في حديقة أفكاري واكتسح الصقيع سائر أغصان جسمي المتجرد من الحياة، زادته رياح الغيرة ألمًا وانكسارًا.

سقط الخريف وها هو ذا موعد سقوط وها هو موعد سقوط الشتاء يا إلهي هل هذا ممكن؟!

حدث ما كنت قد يئست من حدوثه، بدأت نسائم الربيع بالقدوم مع بداية ذوبان الجليد، جليد الرسمية والعمل، بفعل شمس الإعجاب، أرسلت بكل لطف وحنان دفء ضحكاتها، مسحت كلماتها الرقيقة كل آثار البرود من أراضيَّ، لأنطلق مجددًا في طريق العودة من القفارإلى الخضرة، ليزهر حبًا يملئ قلبي حياةً، فاض نهر مشاعري من كل لمسة غير معتمدة منها.

نمت بدل نباتات الأمل القديمة، أشجار شامخة، دبت الحياة مجددًا في شبح الطبيعة الصامتة، دبت الحياة في روحي

ما أحلى بداية الربيع وما أعذب ما تنسجه السعادة من ألحان حب وحنين، ترتب نغمات النفس الهائجة بفعل رياح الشتاء فتغدو مقطوعات عذبة تأنس لها نفس الإنسان.

يستهل الربيع معزوفته بنوتات الحب والهيام؛ كي يلعب على أوتار الحياة في محاولة منه لجعل الإنسان يزهر من جديد، محاولًا جعلي أزهر من جديد، محاولًا إرجاع زهرتي، زهرة الكرز.

كم اشتقت إليكِ يا كرزتي، ، كم اشتاقت لكِ روحي، افتقدتك أيامي واستوحشت جلساتي دونك، كم احتجتك لتكسي أغصاني، سأستقبل زهرة الكرز، لكن كيف! مقعدااا!! عاجزااا!! جليس هذا الكرسي اللعين!!!!!

هبت ريح من بقايا رياح الشتاء بفعل فكرة اللقاء، لقاء شوهه العجز، لقاء كان حلمًا جميلًا، أصبح كابوسًا مريعًا، كسرت أحلامًا قيد البناء وهدمت أساس الربيع الضعيف، عاد الشتاء.

ها أنا ذا قد رجعت خطوتين إلى الوراء بعد خطوة إلى الأمام، صال وجال عقلي بالترهات قليلًا، دقائق في وقتكم، ساعات في وقتي، فجأة هبت نسمة الربيع مجددًا لتزرع بذور الإيمان.

أنا أومن أني سوف أقف وأتحرر من قيود العجز، سأتخلص أخيرًا من ندبة الرصاصة المطبقة على أيامي، سأقطع آخر حبل يشد الشتاء نحوي فألغي أي صلة بينه وبين قلبي.

ما على الإنسان إلا الإيمان؛ إن الإيمان يمسح المستحيل، ليخلق المعجزات.

كافحت رغبة الحياة لأقف متشبثًا بيد الطبيعة التي حررتني من أسر الواقع لحرية الخيال، وقفت شامخًا بعلو كرزتي، وقفت في شرفتي بعد أن ترسخ فيها جلوسي واندثرت منها أي علامات للحراك، تحركت لتتحرك شجرة الكرز بنسمات عليلة من ربيع الحياة، ربيع الأمل.

لم تكن تلك الريح ريح شتاء هدامة بل ريح قضت على الأغصان اليابسة ليزهر الكرز بمثالية.

استعدت أجمل تفاصيل يومي، استعدت زهرة الكرز، اقتلعت فرحتي من مخالب الحياة بعد أن غرست فيّ يومًا خنجر الإعاقة.

جاء صيفي وجاءت كرزاتي إلى الحياة، فلا أقل كرزاتنا، أنا وأنت يا زهرتي، في هذا الصيف الحار بحبك تشبثت أنا، زهرتي وكرزاتي بالفرحة لما تبقى من حياتنا.

أليس كذلك يا زهرتي!!

يضع آخر نقطة لآخر جملة في آخر ما تخطه انامله يقول في شجن:

- انتهيت من نسج قصة أخرى بطلها الأول حبي لك، الوداع حلوتي، لم أتمكن من الحفاظ عليك لكني أحافظ على حبي.

يدير كرسيه المتحرك يدخل غرفته يستلقي على سريره يسمع صوت موت حبه.

تقطع شجرة الكرز ويقطع معها آخر حبل يصل بين مصطفى والحياة، تسقط دمعة حارة من عينيه، يضطجع لسريره، تنام شجرته وينام مصطفي

فلا يستيقظ العاشقان.

إجهاض جزئي.. مهند يحيي حسن

لم يصدقها والدي، حين أخبرته بانتفاضتي حال سمعي لقرع الباب، بعد ولادتي بخمس دقائق، وباستماعها لاحقًا إلى همساتي وأنا أنبؤها بموعد رضعتي، كان يضحك دائمًا منها، ولم يصدقها ويستغرب من كلامها وينكر صدور مثل هكذا أفعال من طفل لا يتجاوز اليومين، مرت الأيام والأحداث تتوالى دائمًا فها هو العم محمود يفيق من سكرته، بعد ملاحظته لخيال طفل يمرق من أمام غرفة الاستقبال، التي دأب على كتابة نوتاته الموسيقية وهو يغمسها بكأسين أو ثلاثة من شراب الويسكي، وها هي الخالة بهيجة ؛ المتحسرة على أن تنجب ولدًا يسد فوهة فم حماتها نوفة، وهي تحث ولدها على الزواج بأخرى ؛ كي يغادره نحس بناتها الثلاث.

أما سحر ذات السنوات الثلاث، المعتادة على الإيقاع بأختها نغم؛ التي تصغرها بسنة ونصف في مقالبها المتعددة؛ لانفرادها بدلال والديها المذهل، فقد أقسمت على مشاهدتي وأنا أحلق في جو الغرفة، الأمر الذي شجع والدتي على إعادة تأكيدها لأقوالها السابقة أمام الجمع المتجمهر حول مائدة المطبخ الأرجوانية، وخوفها من مجالستي لوحدي، ورغبتها في إخفاء كاميرا لتصوير مقاطع وجهي، كلما بدرت على أساريره مقاطع الغضب حين تتأخر عن تلبية متطلباتي البيولوجية.

وحين لم تجد أذنًا صاغية، قررت أن تضعني في سلة وتلقيني عند باب ميتم كنيسة الحي، الذي اعتاد على احتواء لقطاء الحي، وفعلًا استغلت ذهاب والدي إلى محل عمله ونوم خالتي وعمتي وبناتها الثلاث، وقامت بفعلتها.

وما إن أوصدت باب حجرتها بعد إتمامها لما جال في خاطرها، وجدتني مسمرًا أمامها أبكي، بسبب ابتلال حفاظتي.

لم تستوعب الموقف لهنيهة، ثم أطلقت ضحكة جنونية جعلتها تهيم في غيبوبة يقظة، أنّبتها على تفكيرها بالقيام بهذه الفعلة، وكأنما ما قامت به هو تفكير للقيام به ولم يحدث فعلًا.

وفي إحدى الليالي الشتوية الممطرة لمحت شبح تعابير الوجه المتجهم لوليدها الذي فكرت بإلقائه في الميتم وهو يحمل سكينًا ليغمدها في قلب وليدها النائم في مهده، ويجعلها تعاني لما قامت به من فعل.

هرعت إلى دفعه عنه.

ومنذ ذلك الحين، وهي تراني مقتولًا وأقف بجانبها، في مشفى الأمراض النفسية في ساحة الأندلس، وتحاول أن تشير إلي موضعي لدكتورها الذي اعتاد على تحذيرها كلما تفوهت له بهذه المعلومة.

تمت

الحب بنكهة النعناع.. مروة حسين

إن كانت قصص الحب تبدأ بابتلاعك حلوى قرمزية يمتزج فيها الحامض مع السكر، ولكن حتمًا قصتي خلت حلواها من الحامض وافتقرت إلى السكر أيضًا.

أنا هند بدأت قصتي بالبحث بعد التخرج عن عمل أساعد به أسرتي ووقع الاختيار على مركز طبي كبير، كنت أنا منظمة مواعيد أحد الأطباء، وهو بطل قصتي دكتور مروان.

من اليوم الأول لي بالعمل شدني التزامه وجديته وعطفه وكرمه على مرضاه، كان طيب القلب ‌ٍمنظمًا ومهندمًا وراقٍ، وكان يهتم بي كثيرًا.

لم يصرح لي يومًا أنه أحبني، ولكن نظراته واهتمامه كانتا أكبر وأشد دليل على ذلك، ومن جهتي كان هو الدرك الأسفل من البقعة الآمنة لي من العالم، كان العالم كله بكف وهو بالكف الآخر.

ظلت مشاعرنا تكبر وتنسج خيوطها يومًا بعد يوم، حتى جاء اليوم الذي طلب فيه رقم أبي، تسمرت في مكاني فلا يمكن لذلك أن يحدث بهذه السرعة، فلم يمضِ على وجودي سوى شهرين.

ابتسمت وأعطيته الرقم وانصرفت، وكان ذلك قبيل إجازة رسمية مدة يومين كاملين.

رجعت إلى المنزل أتساءل إن كانت مشاعرنا قد تلاقت وقد قرر التقدم لخطبتي؟!! انتظرت هاتف أبي أن يرن وكنت أترقب في صمت.

قلبي يدق بسرعة، حتى مضغ الطعام أصبح صعبًا، فكلما هممت بالأكل أجد غصة تمنعني من ابتلاعه، ولكن مر يومان دون أن يحدث أي شيء ربما كنت مخطئة؟

أكان يطلب رقم هاتف أبي ليتقدم لخطبتي؟ أم مشاعري الهوائية هي من دفعت إلى الخيال أن يقودني إلى هذه الاستنتاجات؟

في صباح اليوم التالي أسرعت بالذهاب إلى العمل ولكن كانت المفاجأة.

باب مكتب د.مروان مغلقًا، وقبل أن أستوعب ذلك كان ساعي المركز يطلب مني الذهاب إلى المدير؛ لأنه طلب حضوري فور وصولي. لم أفهم من كلمات المدير سوى لقد أنهينا خدمتك لدينا.

قلت له:

ـ ولكن لماذا؟! دكتور مروان، ولم أكمل حتى جاء الرد سريعًا، دكتور مروان من أوصى بهذا القرار.

وقفت في مكاني دون حراك أسأل كيف لدكتور مروان أن يتخلى عني بهذه الطريقة؟!! ودون تفسير لهذا القرار المفاجئ.

عدت إلى المنزل أمسكت بهاتفي وقمت بالاتصال به ولكنه لا يجيب وبعدها أغلق هاتفه.

مضت أيام بعدها لم أذق فيهم للنوم طعمًا، وفي صباح يوم جاءتني أمي تحدثني عن شخص قد تقدم لخطبتي بالأمس اسمه فريد يعمل طبيبًا يالها من مصادفة! .الأغرب من ذلك أن مكان عمل فريد يقع بالقرب من المركز الطبي الذي كنت أعمل لديه.

قابلت فريد ولا أعلم كيف دفعني تهوري حينها أن أوافق على الخطبة؟!!

حددنا موعد الخطبة وجاء المدعوون، وما لم أكن أتوقعه دخول دكتور مروان ممسكًا بيد امرأة جميلة منمقة مثله تعلو وجهه ابتسامة هادئة كما اعتدتها، ينظر نحوي بنظرة شاردة لا أفهمها.

تقدم نحوي أنا وفريد وأطبق يده بيد فريد مهنئًا إياه، وهمس في أذنه بكلمات لم أسمعها ثم ابتسم لي وانصرف.

انتهى الحفل الذي لم أهنئ به سوى بالدقائق التي سبقت مجيء د. مروان والحسناء.

أمسكت هاتفي وقمت بالاتصال بفريد أسأله عن صلته بدكتور مروان ولم يكن رده مشفيًّا، فقد قال أنه مجرد صديق، وسألته إن كان يعلم أني كنت أعمل لدى دكتور مروان قبل ذلك، ولكنه أنكر معرفته بذلك، نظرت إلى هاتف واستجمعت قوتي واتصلت به، ولكنه كالعادة لا يجيب، ودارت الأسئلة حول رأسي مرة أخري، تسأل عن صلة فريد ومروان ولماذا لم تكن هناك أي علامة للدهشة على وجه مروان عندما رآني؟

أسرعت في اليوم التالي بالذهاب إلى المركز الذي كنت أعمل لديه،عسى أن أجد تفسيرًا لأسئلتي.

ولكن عندما ذهبت وجدت مكتبه ما زال مغلقًا، وعرفت أنه ترك العمل وأنه سيلتحق بالعمل في إحدى الدول الأوروبية، وكان موعد طائرته فجر الأمس.

لقد رحل هكذا! يظهر فجأة ويختفي كذلك بحركة مخروطية تاركًا إياي في حالة مهلهلة.

لم أفق منها إلا على طلب فريد تقديم موعد الزفاف، ولكني ألححت بأن يكون الزفاف في موعده بعد عام من الآن.

انشغل فريد في تجهيز عيادته الخاصة وترك لي ألغازي المنمقة أعيد ترتيبها، وأبحث عن أجوبة لها.

فعلى الرغم من أن فريد شخص طيب القلب إلا إنه لم تجمعنا مشاعر خاصة فقد اتسم فريد بالعملية.

جاء موعد افتتاح عيادة فريد وفي أثناء انشغاله باستقبال المدعوين، دخل مروان الحفل وتسارعت نبضات قلبي وتقدم نحو فريد يهنئه، وأنا واقفة متصلبة من الدهشة في البقعة الهادئة من الحفل أراقبه كيف لعينيه تدور بين الحضور تبحث عن شيءٍ؟ حتى تلاقت أعيننا وسط الزحام، فقط قام بالنظر إليّ نظرة مطولة ثم ابتسم وانصرف قبل أن أحدثه.

في صباح اليوم التالي جاءتني رسالة نصية من فريد يطلب فيها رؤيتي بالمكان الذي اعتدنا أن نحتسي فيه معًا القهوة.

اليوم تكسو السماء طبقات مظلمة من السحب الرمادية، انقبض قلبي؛ لأن فريد لم يكن ليريد أن يقابلني في مثل هذا الطقس إلا إن كان شيئًا غير عادي.

ذهبت إليه ووجدته شاردًا ينظر إلى الأرض ممسكًا بظرف أبيض ترك لي الظرف، وانصرف دون أن ينطق بحرف واحد، كان الظرف مفتوحًا، إذن فريد قد قرأ محتواه، كان محتواها كالآتي:

عزيزتي هند،،

لم أتطلع يومًا إلى الحب ولم أكن أدري أن يأتي اليوم الذي أكتب فيه عنه وتكوني أنتِ بطلته.

قلبي امتلكه قلبك الصغير الدافئ، وأذابني عشقًا صوت ضحكاتك الخجولة، ولكن من أكون أنا كي أنال شرف حبك السرمدي الطاهر، تمنيت أن أرسل إليكِ هذه الكلمات لأعتذر أنني لم أستطع أن أهب لكِ أيام حياتي فهي قليلة؛ هكذا قالها طبيبي الخاص ولأني طبيب أعلم جيدًا حدود هذه الكلمات؛ فمريض الأورام الدماغية لديه موعد أكثر حتمية من الحب، اليوم أكتب مشاعر كانت لكِ دومًا، وغدا ربما لا أستطيع أن أتذكر حروف اسمك، كي أقرأها عندما ينال المرض من ذاكرتي ولا أتذكر من تكونين ولكن لن أنسَ شعوري حينها، فالمشاعر لا تنسي والحب لا يفنى ولا يموت.

مروان.

أغلقت الورقة ودموعي تنهمر بشدة ولم أستطع الحراك، تمالكت ما تبقى من قواي وأسرعت كالمجنونة نحو بيته أطرق الباب مرارًا ولكن لا أحد يجيب وفجأه حسناء الحفلة تبتسم لي وتقول هند؟ تفضلي، أخي بانتظارك.

رأيته يجلس خائر القوى على أريكة منزله، ووجهه شاحبًا، كيف لم ألاحظ سابقًا بذلك؟

امتلأت أعيننا بالدموع ليقاطعني لقد وصلتك الرسالة أليس كذلك؟

لترد أخته بأنها هي من بعثت لي الرسالة رغم رفض مروان؛ لأنها تعتقد أني الأمل الأخير الذي ربما يتمسك به أخيها.

لأول مرة نجلس معًا مرت ثلاث ساعات لم أشعر بها وكأنها دقائق معدودة.
رجعت إلى المنزل على أمل لقائه بالغد.
أبي ينتظرني عند الباب وبلسانه خبر لا يستطيع أن ينطقه.
فهمت وضممته وقلت له لا عليك، أبي أنا وفريد لم نخلق لنكون معًا.
تزوجنا بعدها واليوم ذكرى لقائنا الأول، اليوم نحن معًا وأعلم أن غدًا ربما لا نكون، ولكن أيكفي من الحب أن نعيش ولو دقائق بسعادة مع من نحب ونصنع معهم ذكريات تكفينا أعوام عدة.
اليوم هو اليوم وغدًا لا أملكه.
لدي الحب والزوج وطفل يسكن أضلعي، وغدًا لديّ كنز الذكريات منهم ولهم، فالحب الحقيقي لا يفنى بمضي الأيام، ولا تذبل المشاعر يومًا ولا تموت.
وكان الحب الذي أعيشه كحلوي النعناع، صحيح أنها تخلو من السكر والحامض ولكنها ذو رائحة منعشة، تعشق رائحتها وتذوب حبًا بطعمها المبهج.

تمت

أحجية من وجهين.. عمر فتحي ربيع

استقلَ "تشارلي" الحافلة متجهًا في طريقهِ إلي شارع "ريجيت"، كانت الحافلة مكونة من طابقين، والطابق يتسع لأكثر من أربعين راكبًا وفي الغالب هكذا الوضع بمدينة " لندن ".

كان تشارلي على موعد مع شخص يدعى "توماس" استغرقت الحافلة سبع عشْرة دقيقة قضاها "تشارلي" بعينين شاخصتين وأخذ يدور بهما يمنةً ويسرة بين لافتات المحلات هناك، فتلك هي زيارتهُ الأولي يبدو أن الأمر في غاية الضرورة.

توقفت الحافلة بالقرب من متجر"لبوربيري" وهناك التقى "تشارلي" بـ "توماس" فوجده طليق الوجه بشوشًا، وكان يرتدي بنطالًا من النوع الفاخر وكذلك بدلتهُ المكونة من قطعتين كانت أشبه بثوبٍ منمق لسفيرِ دولة، على العكس تمامًا فقد كان "تشارلي" كثيرًا ما يشبه الشخص الغجري المحتال، فليست صدفة أن يجتمع الاثنان معًا، فعند الحاجة قد يتجرد البشر من مسمياتهم الوظيفية، لم يدم اللقاء إلا لدقائق معدودة كانت كفيلة بعقد الاتفاق فيما بينهما.

في الرابع والعشرين من أيلول الماضي وبالتحديد في مدينة "لندن" في تمام الساعة السابعة مساءً، كانت قاعة المؤتمرات تتزين لاستقبال اليوم المرتقب لرئيس الوزراء وعلي إثرهِ سيشعل فتيل الحرب على شخصياتٍ يزعم بأنها تهدد

أمن البلاد والعباد، على الجانب الآخر يبدو أن أحدهم سيقف حائلًا بين حدوث ذلك.

توافد المسؤولون وكبار رجال الدولة على القاعة المغلقة تمامًا والمؤمنة برجال الشرطة، كما وقد أتى أيضًا بعض الصحفيين، ولكن الغريب والمثير للدهشة أن "تشارلي" كان موجودًا بالداخل يبدو أن أحدهم قام بتزوير أوراق تثبت أنه يعمل بمهنة صُحفي في جريدةٍ ما، يبدو أن تشارلي ينزلق نحو بئرٍ سحيقة، يا لها من سذاجة!

دقت التاسعة وعلى الفور غصَّ المكان بالحرس الخاص لرئيس الوزراء تمهيدًا لتأمينه وحفاظًا على سلامته، من بين الحضور قد أرسل إليه "تشارلي" النظرة الأخيرة والتي حملت في طيَّاتها الكثير من الشر والوعيد، حدث ذلك قبل أن يخرج مسدسًا، ويطلق النارَ على رأسِ مباشرةً ليطرحهُ أرضًا، وحينها حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد انغمس المكان في الظلام الدامس، ولا صوت يعلو فوق صوت الفزع والهلع، يبدو أن الخطة محكمة تمامًا فليسَ شخصًا عاديًّا من يتجرأ على التدبير لذلك.

تمكن تشارلي من الهرب فتلك نتيجة حتمية لما حدث في التو واللحظة، أمسكَ بهاتفه وقام بالتحدث مع "توماس" لمدة لا تزيد عن إحدى عشرة ثانية، وأنهى المكالمة، وكالعادة سحبَ شريحة الاتصال من الهاتف وقام بكسره وألقاهُ في صندوق القمامة القائم بمنتصف الشارع.

أشعر أن مهمتي قد انتهت ويتوجب عليَّ الذهاب فورًا فأنا أعلم طريقي جيدًا، لكن من الممكن أن تغادر الملجأ يجب عن أسرع كي ألحقَ بها فهي من يحتضنني عندما لا أعلم إلى أين أذهب.

أفقتُ من نومي مرتعبًا على صوتِ طرق الباب طرقًا أشبه بطَرْق البوليس السري ليلًا، هل من الممكن أن أكونَ القاتل؟ لا أدري.

الصوت يناديني من خلفِ باب غرفتي "أنقذني يا جدي" ثم تحول الصوت لنوبة من البكاء الشديد، استبدَّ بي هاجسُ الليل وتناولتُ كوبًا من الماء كان بجانبي وأخذتُ جرعة من الدواء لكن تلك المرة ليست بالقليلة، أشعر بفتور في الحواس ورغبة مُلِّحة في النوم حتى استسلمتُ له بكامل أعضائي.

ليلٌ مدلهم، سماءٌ اندثرت نجومها، ريحٌ عاتيةٌ تكادُ تصيبُ الحشا بإعياءٍ شديد، متخطية نافذتي من شدتها، أذكر أن العصافير لم تشدُ هذه الليلة ففرت هاربة، باءت محاولات استطراقي إلى باب الغرفة بالفشل يبدو أن نوبة الهذيان ستطول، حينها سمعتُ صُراخًا أظنُّه لطفلٍ لم يتخطَّ الثالثة من عُمُرهِ بعد، بلغَتْ حدةُ الصراخ أشُدَّها، وضعت قدمي على الأرض مستندًا إلي العصا وحاولتُ الوقوف مرةً تلو الأخرى، وعندما استجمعتُ قوايّ ونهضتُ من مكاني لم أستطع أن أخطو خُطوةً واحدة ووقعتُ مغشيًّا عليّ، وعندما أفقتُ إذ بالعصافيرِ تشدُ وتتسامرُ فيما بينها وتطيرُ فرحًا، فتحتُ نافذتي لأسمعَ صوتُ القارئ بمحطةِ " القرآن الكريم " فعلمتُ أن الساعة قد تجاوزت السابعة صباحًا، يبدو أن الواقع بريء ليس لديهِ يدٌ في تلك الخرافات التي رأيتُها في منامي ليلةَ أمس!!

وبينما الحالُ كذلك إذ بطارقٍ على الباب، فهرولتُ مسرعًا لأفتحَ له كان صوتُ الجرس أشبه بدوي المدافع على مسامعي فأصابني بالضجر، نظرتُ من ثقب الباب لأجد شخص أجهلهُ تمامًا، كان يقتني حقيبةً بيدهِ أشبه بتلك التي كانت تلازمني عند ذهابي للجامعة، قال بأنه طبيب يداوم على علاجي منذُ العام الماضي، ظلَ قرابة الساعتين منغمسًا في الحديث عن الفصام وأبلغني بأني مريض، كما طلب مني الذهاب إلي عيادتهِ لاستكمال جرعات الدواء، حدَّقتُ النظرَ إليه لأجدُهُ قد تلاشى تمامًا كأن لم يكن، فأنا ما زلتُ أسمعُ صوتُ العصافير، يتراءى لي أنني ما زلتُ في مكاني ولم أغادر غرفتي.

قمتُ بفتحِ التلفاز وتجولتُ بين محطاته، استوقفني صوتُ مذيع القناة الرابعة بعد المائةِ قائلًا: "كما أن القاتل يعاني مرضًا نفسيًّا مزمنًا، قامَ على إثرهِ بارتكاب هذه الجريمة، فقتلَ زوجتهُ وطفليهِ، انتابني الشعور بالخوف بل وتملَّكَ مني، سمعتُ حينها من يناديني لألتفتْ من النافذة فتلكَ هي المرأة التي قُتِلَت، تُلوحُ لي من بعيد كأنها تعرفُني جيدًا، ظلت تُرسلُ إليَّ الابتسامة كدليل براءتي من هذه الجريمة، فأنا لم أقتلْ أحدًا! وكيفَ لكفيفٍ أن يفعل ذلك؟!

أشعر وكأنَ شيئًا يعبثُ برأسي أشبهُ باليمِّ الذي تلاطمت أمواجهُ جسدي أصابهُ الوهن كبيتِ العنكبوت.

"حان وقت الدواء يا سيدي" على الأرجح أن الخادمة قد أعدَّت جرعة الدواء وستأتي لتعطيني إيَّاها، سمعتُ همسَ قدميها تريدُ ألا تحْدِثْ ضجيجًا، قالت لي:

ـ إنَّ الشمسَ قد توارت بالحجابِ عن مدينتنا، وعمَّ الظلامُ أرجائها، أعلم يقيناً أنها كاذبة، وما إن أحسستُ أنفاسها تقترب مني إلا وطرحتُ يدها جانبًا، فانسكبَ الدواءُ على الأرض وصرختُ في وجهها "اغربي عن وجهي " وطردتها خارج المنزل.

يراودُني الشك بأن الخادمة هي من قتلت المرأة والطفلين، فلديها من الصفات القبيحة ما يجعلُها ترتكب هذه الجريمة، وفي الغالب فالإعلامُ يكذب ويضلل فأنا لستُ قاتلًا.

أغلقَ الطبيبُ دفترهُ وانتفضَ واقفًا، أرى الغضبَ على وجههِ كريحٍ هوجاء من شدته، كنتُ أتمنى أن تخبأني الأرضُ في جوفها، لا أدري ماذا فعلتْ!

«قلتُ لكَ بأن الإهمال المتكرر لجرعات الدواء سيؤدي حتماً لفظاعة الأمر» هذا ما قاله طبيبي في النهاية قبل أن أغادر عيادتهُ.

الساعةُ الآن الثالثة والنصف فقد حانَ وقتُ تناول وجبة ما بعد الظهيرة فأنا من مدمني "الشاي الإنجليزي" عادةً ما يتم تخميرهُ في الإبريق ويُقَدَّم مع الحليب والسكر، يا له من شيء رائع!!

ركضتُ نحو محطة مترو "أكتون تاون" على أمل أن ألحق بصديقتي "مارلين" التي تقطن في حي من أحياء "آرسنال" سنحتسي الشايَ معًا.

هذه كانت البداية لرواية بعنوان "هلاوس خفية"، أثارت إعجابي كثيرًا، وطلبتُ من موظفي قسم الإعارة أن أستعيرها، وذهبتُ على الفور.

تمت

مزيج من الدماء اللزجة متناثرة في كل مكان وكلمة كتبت على المرآة بخط مستقيم {خائن}، تتوسط الغرفة الرأس خالية من الأعين والأنف واللسان والأذن، وعلى الجانب الأيمن نجد الذراع الأيمن مجزء كفيه إلى قطع صغيرة إن تمعنت النظر إليها تجد أنها الأنامل، وكذلك الحال على الجانب الأيسر للذراع الأيسر مثله مثل الأيمن، في نهاية الغرفة نجد الأرجل منفصلة عن باقي الجسد لتبقى هي الأخرى على الجوانب مرصاة بترتيب محدد، ذلك كان المشهد المأسوي، عندما دخل رجال الشرطة الغرفة ووجدوا فتاة في نصف العقد الثاني من عمرها تجلس في الوسط وحولها جسد شاب في بداية العقد الثالث من عمره ممزق تضحك وتضحك وتضحك بهستيرية عجيبة وكأن العالم من حولها يطلق لها النكات أثار ضحكها الرعب في نفوس الحاضرين من رجال الشرطة والطب الشرعي فلم يروا من قبل امرأة بمثل هذه الحالة خاصةً وأنها كانت تأكل بشراهة ويديها وفمها ملطخين بالدماء، كانت تأكل ككلب سُعر من إناء أمامها بداخله وضعت أعين وأنف ولسان وأذن الضحية.

ـ ما هذه البشاعة!؟

كانت هذه الجملة خارجة من فم أحد جيران المجني عليه، حيث كان هو من اكتشف الجريمة عندما سمع صوت صراخ يدوي في الشقة بأكملها ليفزع من كان نائمًا، ويخيف من كان مستيقظًا، أخرجه أحد العساكر من الذين كانوا متواجدين إلى الخارج، وأغلق باب الشقة وراءه منعًا لدخول أي أحد من

الجيران مرة أخرى، فيصاب هو بالأذى من الضابط المسئول عن القضية وظل واقفًا بعيدًا عن الغرفة التي بها جريمة القتل يقرأ بعض الآيات القرآنية والخوف يتلبسه.

قام الطبيب المختص بالطب الشرعي بارتداء القفازات، وحاول بهدوء التقرب من الفتاة ليضع يده على كتفها في البداية فيجدها تصمت عن الضحك ثم يحاول مرة أخرى بنفس درجة الهدوء أن يزيح بعض من خصلات شعرها المتساقط على وجهها كي يتمكن من رؤية وجهها ليجدها مبتسمة له ابتسامة عجيبة تكاد تنزع القلب من محجره فإذا به يأخذ خطوة تلقائية إلى الخلف كي يأخذ حظره منها، و في أثناء رجوعه إلى الخلف أمسكت بيده التي أزاح بها شعرها المتساقط لتقبلها قبلة خفيفة وهي مازالت تنظر إليه بهذه الابتسامة نفسها مما جعله يشك بأمرها هل هي عاقلة أم مجنونة أم عاقلة وتظهر تصرفات الشخص المجنون أم ملبوسة من الجن؟! فجميعهم احتمالات واردة، لكنه رجح في ذهنه التشخيص المبدئي بأن تكاد تكون مجنونة لأن هذه التصرفات ليست بتصرفات شخص عاقل.

ـ أتعتقد بأنني مجنونة، لا لست كذلك هههههههههههه.

قالت هذه الكلمات لتجعله يجن هو ويشك بأمر نفسه هل كان يفكر بصوت مسموع وهي سمعته؟ أم أن كلامها مجرد صدفة، حينما وجدها الضابط تتحدث، طلب من الطبيب الرجوع إلى خلف حتى يتمكن هو من محادثتها.

ـ أتعلمين لمن هذه الجثة؟؟

ـ نعم، إنها لزوجي.

ـ ومن فعل به هكذا؟ أأنتِ؟

صمتت حينها ولم تجب بل نظرت حولها بإعجاب ودهشة وكأنها تستعجب الحاضرين، وتسترجع ما حدث ثم بدأت بالبكاء والصراخ الذي تلاه ضحك للمرة الثانية، مما جعل الضابط يمسكها من أعلى ذراعها ويصرخ بها {كفاكِ ضحكًا} ، سكتت ليخيم الصمت فجأة في الشقة بأكملها ثم عادت لتتحدث وتجعلهم يغوصون في بحر مليء بالأفكار.

ـ اجعل ذلك العسكري الواقف عند باب الشقة أن يتوقف عن تلاوة القرآن، وأخبر الطبيب بأنني لستُ مجنونة وأنت كفاك والتفكير بمن حولي وإلا جعلتهم يؤذونك.

ـ إذًا تفكيري صحيح؟

ـ ليس صحيح مئة بالمئة.

ـ حسنًا علينا اصطحابك من هنا، وعليكِ إخبرانا كيف استطعتِ فعل ذلك.

ـ لن يجعلوك تأخذني من هنا، وسوف أقص عليك كيف فعلت ذلك ولما فلا داعي إلى لمزيد من الألغاز.

«لم يمر على زواجنا العامان ووجدته يخونني مع صديقة معه في العمل، علمت ذلك الأمر بالصدفة عندما كنت أمسك بهاتفه لأقوم بالاتصال بأحد أقاربي، لتصل رسالة من رقم مسجل باسم رجل محتواها جعلني أدخل في صدمةٍ {ألم يحن الوقت للتخلص منها؟ ألم يكفيك ثلاثة أعوام ونحن نحب بعضنا البعض سرًا؟ وعامان وأنت متزوج، إذا كنت تخشى حبها فسأضحي بحبي لك أنا} قرأت هذه الرسالة والذهول في عيني، ثم قمت بحذفها حتى لا يعلم بأنني قد

اكتشفت أمره، مر أسبوع ووجدت نفسي أرقد في المستشفى إثر إصابتي بحالة من التسمم، حينها تذكرت كلامها في الرسالة التي قرأتها {ألم يحن الوقت للتخلص منها؟} ففزع قلبي وانتفض جسدي لأجده يحتضنني ويسأل ما بي؟ فأنفره بعيدًا، وأخبره بأنه لا يوجد شيء مجرد إرهاق، شُفيت وأصبح جسدي بحال أفضل ولكن عقلي ظل سجين للأفكار، ونومي أصبح ملجأ للكوابيس فما كان عليَّ إلا وتنفيذ ما كان بخاطري منذ هذه الليلة، ذهبت إليها دون تردد ولا أنكر أنني كنت خائفة في البداية حيث كانت يدي تسيطر عليها الرعشة، ولكن كانت القشعريرة تسيطر على جسدي ولكن بمجرد جلوسي أمامها وجدت كل آلامي تزول تدريجيًّا، فطلبت منها ما يزيدني قوة لأجدها تلبي طلبي دون مقابل مما جعلني أقلق في البداية، وبعد مرور شهر جاء اليوم المشهود الذي أرى به جثتي ملقاة على أرضية المطبخ مذبوحة العنق، وأرى زوجي واقفًا حاملًا بيده السكين وبجواره محبوبته تهدأ من روعه ويفكران معًا، كيف سيتخلصان من الجثة وما أن لبث صباح اليوم التالي أن يشرق ويضيء نوره الشوارع إلا وكانت جثتي ملقاة في النهر، لم يكن يعلم بأنني سوف أعود وسأعود أقوى من ذي قبل، لا يعلم سر تأخري الدائم في الحمام تلك الفترة الأخيرة، لم يكن على علم بممارستي السحر الأسود، وتلك كانت مفاجأتي له عندما رآني أقف أمامه اليوم ولكم لتروني ولتروا جثته ممزقة بهذا الشكل فالرأس اقتلعت منها العينين لأنها نظرت إلى غيري، والأنف قطعته لأنه استنشق عبير غيري، ولسانه تم قطعه لأنه كذب عليَّ في كل مرة كان يخبرني فيها بأنه يحبني، والأذن قطعتها كي لا يصغى إلى أحدٍ من بعد، يديه وأنامه

قطعوا إلي أجزاءٍ صغيرة؛ لأنهما لمسوا جسدي ذات يومٍ بل تجرأوا على لمس غيري، وأرجله ساروا إلى أبعد الحدود ذات يوم، أما عنها فستجدون جثتها في النهر مذبوحة العنق».

ما إن انتهت من كلامها إلا وقد ساد الظلام الغرفة، وتعالت الأصوات فلا أحد يعلم سبب انقطاع الكهرباء، وبعد لحظات قليلة عاد النور يكتسح المكان مصطحبًا معه الصدمة لجميع من كان متواجدًا بالشقة فقد اختفت، واختفت معها جثته، وبقيت كلمة كتبت على المرآة بخط مستقيم بدمائه

{ خائن }.

تمت

صائدة الأحزان.. مروة إبراهيم

أنا صائدة الأحزان يجذبني كل حزين وحيد يتسكع في الليل تاركًا للديار أنا لين.

ظلت لين تضحك بصوت شيطاني مرتفع، وتبدل شكلها وأصبحت أقرب إلي أفعى بشعة المنظر ظلت تدنو من فاطمة التي فقدت القدرة على التنفس وفجأة اختفى كل شيء أمام أعين فاطمة فلم تعد ترى شيئًا سوى الظلام الدامس.

في الصباح طلب عادل من ابنتيه جميلة ذات العشرين عامًا، وفاطمة ذات الثامنة والعشرين أن تقوما بتنظيف وترتيب المنزل جيدًا، لأن (علي) جارهم سيأتي اليوم ليتحدث معه بأمر هام.

ابتسمت فاطمة ولمعت عيناها بالسعادة حين علمت بهذا فظل قلبها يطرب لما سمعت وجلست تصلي وتدعو الله أن يتقدم علي لخطبتها فهي معجبة به بشدة؛ فهو رجل وسيم غني في الثلاثين من العمر يناسبها تمامًا، وحين فرغتا من التنظيف وترتيب المنزل ذهبت فاطمة لتضع الماكياج وترتدي أجمل ما تملك.

في الساعة السابعة مساءً دق(علي) باب المنزل، وقام عادل بفتح الباب واستقباله، ألقى (علي) التحية وجلس في الصالون بعد قليل ولجت فاطمة في تؤدة لتلقي التحية على (علي)، ووضعت صينية عليها الشاي وبعض الكيك، ثم ذهبت إلى غرفتها تنتظر الخبر السعيد.

أما جميلة فقد كانت تتميز بالجرأة الشديدة، فظلت تتنصت عليهم علها تعرف ما الذي أتى (بعلي)، الذي سمعته وهو يطلب يدها من والدها فأخبره "عادل" على الفور بالموافقة، فابتسمت.

استأذن عادل ليسأل الفتاة عن رأيها فوقف وذهب إلى غرفة الفتيات وسأل "جميلة" عن رأيها، فأومأت برأسها بالموافقة، فعاد عادل وأخبر (علي)بالموافقة، وأن الخطبة ستكون يوم الخميس القادم، كانت فاطمة تجلس على السرير صامتة كالمحنطين، لا تدري ماذا تفعل كل ما كان يجول بخاطرها من هول الصدمة.

"هل هذا حقيقي أم أنني أحلم، منذ أن جاء هذا الشاب إلى البناية منذ ستة أشهر، وأنا أحلم بيوم زواجنا، والآن هو يريد أختي وأبي يستجيب له بسهولة ماذا عني وعن مشاعري؟"

عند الحادية عشرة فتحت فاطمة باب الشقة الموجودة في الدور الثامن بالبناية وخرجت، في وقت كان الظلام قد خيم على كل شيء بسحره، شعرت فاطمة بالاختناق، ظلت تخطو متأرجحة تتسلل الدموع من عينيها وتزداد مع الوقت، كانت هناك حديقة صغيرة خلف المبنى، ذهبت فاطمة إلى هناك غير واعية، فقط تفكر كيف لأبيها الذي تحبه أن يفضل جميلة عليها ويزوج هذه الصغيرة قبلها وأيضًا بمن تحبه هي.

ومن بين دموع عينيها وشرودها، ظهرت أمامها امرأة مريبة الشكل طويلة القامة ترتدي عباءة سوداء تغطي رأسها، ابتسمت لها ابتسامة عريضة وربتت على كتفها بلطف، ثم مسحت بأناملها الدموع المنهمرة وجذبت الفتاة من يدها، تحركت فاطمة معها لا تدري كيف حدث ذلك فكانت كالمخدرين

تشهق مرة وتسعل أخرى، وبعد عشْر دقائق وجدت نفسها أمام منزل صغير، فتحت المرأة باب المنزل وأشارت بيدها لفاطمة، أي تفضلي

كانت الإضاءة خافتة ورائحة المنزل عطنة، ولجت فاطمة إلى الداخل كالمسحورين أجلستها على أريكة بالية، وجلست أمامها ترمقها بنظرات غريبة، صوبت فاطمة بصرها جهة اليسار فوجدت رأس ذئب برزت منه الأنياب مما يثير الرعب في النفس، ثم ألقت ببصرها جهة اليمين فوجدت حائطًا متقشرًا بشع المنظر.

- لا تخافي أنا صائدة الأحزان، أساعد كل حزين أنت بأمان هنا والآن قصّي عليّ ما الذي أحزنك وجعلك تتسكعين وحيدة في الشوارع في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل.

حكت لها فاطمة قصتها وكيف كُسر قلبها، أخبرتها لين العرافة أنها تستطيع مساعدتها وسوف تقوم بتغييب عقل أختها حتى تجن تمامًا ويتركها خطيبها ويقوم بخطبتها كما رغبت، كانت الغيرة تسيطر على فاطمة في ذلك الوقت، كان عقلها يغلي كالمرق فوق الموقد فوافقت على الفور، انتصبت لين ودنت من فاطمة، تعجبت فاطمة وتحركت بظهرها إلى الخلف لتبتعد عن لين، ولكن لين اقتربت أكثر وقبلتها على شفتيها، لم تستطع فاطمة أن تفعل شيئًا، ابتسمت لين بخبث ابتسامة أفعى، ودنت من أذن فاطمة متحدثة بصوت حالم وكأنه آتٍ من عالم آخر، تم الأمر، هكذا نمضي عقودنا هذه الأيام يا صغيرتي، نهضت فاطمة وظلت تركض حتى وصلت إلى المنزل، وجدت زحامًا أمام المنزل، بعض الجيران والمارة يتحدثون عن حادثة انتحار، التفوا حول شيء ما، ذهبت لترى

ماذا هناك، وجدت جثة جميلة ملقاة على الأرض والدماء تسيل من كل مكان بجسدها ووالدها بجانبها يحتضنها ويطلب منها أن تستفيق، يبدو أنه كبر مائة عام من هول الصدمة، علمت بعد ذلك أن جميلة ظلت تصيح من الشباك ثم ألقت بنفسها.

لم يتحمل والدها ذلك، فجأة رقد بجانب جميلة لا يستطيع التنفس ظل يشهق ويشهق ويتعالى صدره ويهبط، ثم ساد الصمت وأصبحت الأرض تحمل ميتين لا واحد، لم تستطع فاطمة أن تنطق بكلمة واحدة لم تكن تفكر سوى بلين، ركضت مهرولة تبحث عن منزل لين حتى وجدته، ووجدت الباب مفتوحًا دخلت مسرعة، تصرخ:

ـ أيتها الملعونة ارجعي لي أبي وأختي.

ثم بدأت بالبكاء والنحيب:

-لا أريد شيئًا سواهم سوف أفعل لكِ أي شيء تريدينه، لقد ندمت، أستغفر الله العظيم سامحني يا الله ليتني لم أفعل، ليت كل شيء يعود كما كان.

رمقتها لين وظلت تضحك بصوت شيطاني مرتفع وتبدل شكلها وأصبحت أقرب إلى أفعى بشعة المنظر، ظلت تدنو من فاطمة التي صاحت

-لااااااا.

ثم فقدت القدرة على التنفس وفجأة تغمض عينيها من الخوف، اختفى كل شيء أمام عيني فاطمة فلم تعد ترى شيئًا سوى الظلام الدامس.

تفتح فاطمة عينيها لتجد نفسها في الحديقة الخلفية للبناية كانت فاقدة الوعي والدها وجميلة بجانبها يضطرب قلبها، لم تدرِ، وتقوم باحتضان أختها مباركة خطوبتها ثم تنظر إلى السماء حامدة الله. وتتنفس الصعداء.

تمت

وطن ضائع.. ياسمين جوابرة

عاشق يشتعل في لهيب الحب، وحبيب غارق في محيط العشق، تلك هي حاله مع فلسطين، أي حب حصلتْ عليه، وكيف لها أن استحوذتْ ذلك القلب، والذي أبى أن يدخله أي زائر، ولكنها كانت إلا من الأي كانت الاستثناء من الجميع، تنظر إليه، فترى تفاصيل وجهه ترسم وجه حنظلة المخفي، كلماته تتمة جمل غسان – والتي لم تكتمل – حنجرته لا تكفُ عن النطق "بوطن"، شفتاه لا تنفكان عن التمتمة بمقاومة، عندما كنتُ أسأله عن سر هذا الحب كان يجيبني دائمًا بعبارة لا زال صداها يتردد بأذني:

ـ أعتقد أننا لُقّحنا حب الوطن بدلًا من لقاحات الأمراض في صغرنا، ولأن الوطن أكبر من أن تتسع له قلوبنا، بدأتْ ملامحه تختلط بملامحنا، وهنا يمكن أن أخبركِ بأن وطننا لم يُحتل، وإنما ضائع في دواخلنا.

أعتقد بأن النصف الثاني من عبارته يفسر ما ألقته أمي على مسامعي يومًا عندما أخبرتها أن وجه جدي شبيهٌ بالوطن،

فقالتْ: "أن تحب البلاد يعني أن يراها الآخرون في ملامحك".

بالطبع فما كان يلفتني به فلسطينيته اللامحدودة، تراه فترى الوطن بوجهه دون حتى أن تفكر من أي البلاد هو، أو إن كان يحمل أصلًا غير فلسطيني، تطلبُ منه أن يصف لكَ الوطن، فيخبرك بأدق التفاصيل وأصغر الأماكن، غريب هو فكيف لشاب لم يكمل الثلاثين من عمره، ويتحدث عن البلاد كما لو أنه وُلد

فيها وجابها من أصغر زقاق إلى أكبر شارع، أجل فقد هجّر منها قبل أن يولد، حرم من منزله الذي كان من المفترض أن تداعب ذكرياته ذاكرته، حرم من تعليم القرية، ومن الفتاة التي كان يمكن أن يحب، حرم من أن يفتح باب منزله بالمفتاح القديم بدلًا من رؤيته يتدلى فوق صدر جدته، حرم من سعادة كان يجب أن يشعر بها لو أنه لا يحمل لقب فلسطيني.

دائمًا ما فكرتُ، ماذا لو أننا لم نهّجر، هل كنا سنلتقي؟ هل كنا سنُرفع بالحب أم نقع به؟ هل كنتُ سأرى تلك الحلقة تُزيّنُ إصبعي وتشكل رابطاً مقدساً بيننا؟ لا زلتُ أفكر! ماذا لو أننا التقينا في البلاد؟ هل كنتُ سأعقد قراني على من زاد حياة لقلبي على شاطئ غزة؟ أم في بيارات يافا؟ هل كنتُ سألتقط صورًا في باحات الأقصى، ليزيد لمعان القبة للصورة جمالًا إضافيًّا؟ أو ربما في ساحات كنيسة المهد مع شموع تحيط بنا؟

يقولون إن للمرء قلبًا واحدًا ومثلها من الروح، وأنه عندما يصيب سهم الحب قلبه تصبح الروح روحان، فما بالك بشخصٍ قد أعلن ارتباطه بوطنه، كانت أشجار الزيتون ذبلة الارتباط، وثمار اللون والزيتون الشاهد على هذا الحب، فشخص كهذا يصبح لديه من الأرواح سبعًا يتباهى بهم أمام أقرانه والجيران، فها هو يلثم يد أمه، يغطي وجهه بكوفية جده، والتي غادر بها من الوطن، ينظر في عينيّ، يقترب ليعتذر، فقد تغلب حب الوطن على حبي.

– سأبقى دائمًا فخورة بكَ، اذهب، فإني أحصّنكَ بالرحمن منهم، إن فلسطين أحق مني بكَ.

تمت

المحكمة.. ناصر رمضان

في السابعة من صباح أحد أيام أكتوبر، استيقظ أدهم لآخر مرة في حياته، وقف أمام المرآة يلقي نظرة أخيرة على هيئته، عندما لاحظ نفسه يبتسم:

"منذ متى نبتسم في الصباح يا أدهم"؟

تساءل متعجبًا يبحث عن سبب، هل لأن اليوم هو الخميس؟ وهذا يعني سهرة قد تطول إلى الفجر مع الأصدقاء يبهجه الخميس منذ كان طفلًا.

أو ربما السبب يكون نجاحه في مغادرة الفراش مع رنة المنبه الأولى، وهو الذي اقتنع منذ زمن أن اللحظات الأولي في يومه ما بين استيقاظه إلى أن يغادر الفراش هي الحرب الأصعب على الإطلاق؛ ففي كل صباح يفتح عينيه ويظل راقدًا مسلوب الإرادة والتساؤلات الصباحية عن جدوى ما يفعله تدوي داخله.

أنهى الروتين الصباحي من اغتسال، صلاة، اختيار ملابس تناسب حالته المزاجية سريعًا، وخرج إلى الشارع واضعًا سماعة الهاتف في أذنيه، ليأخذ جرعة أمل من صوت حمزة نمرة وهو يطربه:

"قولنا صباح الخير وعلى الله تبقى الدنيا رايقة،

وده مين ده اللي يضايقنا ولا يعكر مزاجنا

لا إنسى إنسى إنسى".

في الشارع الجانبي الملاصق لمبنى المحكمة، كانت تنتظره عربة الكبدة التي تنتهي عندها طقوسه الصباحية.

لا بُدَّ من شطيرتي كبدة، كما لا بدّ من صوت حمزة نمرة الصباحي قبل أن يدخل من باب المحكمة؛ يشعر بأنه لو فوّت طقسًا واحدًا سيختل توازنه، أو أن اليوم سيتعطل كماكينة نسي أن يشحنها بالكهرباء فتوقفت.

سمع العم فاروق يقول لأحد زبائنه: "تبا لك"، فابتسم.

وكان العم فاروق سريع التأقلم في أي عمل أو مكان جديد يذهب إليه يكسب الجميع بسهولة من خلال ابتسامته الودود، وردوده اللطيفة غير المتوقعة.

أكبر مشكلة واجهت العم فاروق عندما انتقل بعربة الكبدة التي يملكها إلى مكانه الجديد بجوار المحكمة، هي كلمة "أحَّا" التي تنطلق منه بلا وعي ولا قصد طوال اليوم.

في البدء، كان يلتزم الصمت خوفًا أن تخرج منه الكلمة البذيئة في حضرة مستشار أو قاض أو أحد كبار المحامين، هو الذي اعتاد أن يتعامل مع زبائن القهوة القديمة وأغلبهم صنايعية، الخطأ معهم أمره هيّن.

انفك خرس العم فاروق يومًا، عندما سمع أحد المحامين يقول لزميله ضاحكًا:

ـ تبًا لك.

لم يفهم معناها، لكنه أجراها على لسانه فشعر وكأنها بصقة يبصقها في وجه أحدهم، خاصة مع حرف الباء، جربها مرات على لسانه فوجدها أكثر راحة من اللفظ القديم؛ فكان يقولها طيلة الوقت في الجد والهزل، حتى اشتهر بها وسط المحامين وأمناء الشرطة.

بعد أن بصقها في وجه أحدهم، التفت ليجد أدهم واقفًا مبتسمًا ينتظر إفطاره المعتاد.

جهز له الشطيرتين، وعاد ليكمل صنع العشرين شطيرة للأمين "خلف" كي يأخذهم للمتهمين.

أنهى أدهم الشطيرتين، ومع صوت حمزة المنبعث من سماعة الهاتف، انفتحت نفسه أكثر، وعلى غير عادته مد يده يتناول شطيرة ثالثة، سحب واحدة من أمام المعلم، وضع أمامه حساب الثلاث شطائر، ثم اتجه إلى باب المحكمة حيث تنتظره القضية الملعونة للحظة، شعر بغرابة طعم الشطيرة الأخيرة.

صعد الأدوار الأربعة التي تفصله عن قاعة المحاكمة على مهل سارحًا في تفاصيل القضية ذات الطابع السياسي التي يخشاها سواء ربحها أو خسرها.

رجل من بلدته معروف عنه انحيازه الدائم للنظام، أي نظام، حتى لو كان النظام هذا يمثله موظف الحي الذي يمر كل فترة يبتز أصحاب المحلات، كان هو الوحيد الذي يعامله باحترام وتوقير، «ما دام يمثل النظام فلهم علينا حق الطاعة ولو ظلمونا».

كانت هذه فلسفته، التي يدافع بها عن نفسه عندما ينتقده أحدهم.

كان خبر القبض عليه بتهمة الانضمام إلى جماعة إرهابية غير معقول، وعندما أتت امرأة الرجل إلى مكتب أدهم لم يكن أمامه إلا القبول لإيمانه ببراءته.

وقف على باب القاعة لحظات يقرأ فاتحة الكتاب ويتلو بعض الأدعية ودخل ليرى ما لم تصدقه عيناه:

القاضي على المنصة، وبجواره مستشاريه يرتدون الطرابيش، فوقهم الميزان رمز العدالة، على يسار المنصة نافذة بعرض نصف متر، وترتفع إلى السقف.

السيد وكيل النيابة كان واقفًا وهو أيضًا يرتدي طربوشًا، وكان يكمل خطبة عصماء بلغة عربية سليمة.

لون القاعة الذي يعرفه بني اللون، أما اليوم فهو أسود باهت.

بنظرة مدققة في أرجاء القاعة، وجد كل شيء بالأبيض والأسود كأنه انتقل إلى مشهد في فيلم عربي من الخمسينيات.

أشار له القاضي أن يجلس مكانه فجلس متوترًا، وعيناه تبحث هنا وهناك علّه يجد كاميرات التصوير ومخرج وفنيين فلم يجد.

عاد ببصره إلى باب القاعة، يتأكد من أنه لم يخطئ القاعة فلمح الرقم النحاسي على الباب يخبره ألا خطأ هناك.

انتبه على صوت وكيل النيابة المرتفع، حوّل نظره إليه وهو يشعر بشيء غريب.

السيد وكيل النيابة فمه مغلق ومع ذلك كان كلامه واضحًا.

دقق أكثر فرأى فتحة شرج السيد تنبسط وتنقبض والكلام يخرج منها.

رأى الانقباض والانبساط من خلال بنطاله الذي تحول بصورة ما إلى ستار شفاف.

نظر إلى القاضي مرتبكًا، رفع يده حتى يسمح له بالكلام، كان يريد أن يقول إن هذا لا يليق.

لا يصح أن يتكلم أحد من مؤخرته، خاصة في مكان مقدس كهذا. نهره القاضي بنظرة صارمة كي ينزل يده ولا يقاطع السيد ممثل الادعاء اختلجت شفتاه مع

شاربه الخفيف، كما يحدث دائمًا كلما شعر بالتوتر مع عرق غزير انسال على جبينه وهو يسمع ويرى تلك العجائب عندما رأى مديحة كامل بنفسها خارج النافذة.

كان حلم عمره أن يتزوج فتاة تشبه مديحة كامل.

وجد الفنانة تقف خارج النافذة على الهواء، ومن ظهرها لمح جناحين ذهبيين يرفرفان، وبيدها تشير له أن يقترب.

قام متوجهًا ناحيتها غير مصدق ما يراه، وصل عند النافذة، ابتسمت له ومدت يدها، أمسكها وصعد وهو يسمع همهمة من خلفه، اتسعت ابتسامتها وهي تقول له:

ـ أنتظرك منذ زمن، هيَّا معي.

خطا بقدمه خارج النافذة وقلبه يكاد يتوقف من الفرحة.

=========

أطلق العم فاروق سبة بذيئة في وجه امرأته لتبتعد عن شاشة التلفاز.

ظل يتابع برنامجًا على قناة مصرية تتكلم عن المحامي الوطني الذي انتحر اليوم ندمًا على توليه قضية أحد الخونة.

حول إلى قناة أخرى غير مصرية تتكلم أيضًا عن نفس المحامي البطل، الذي رأى الظلم بعينيه ولم يتحمله فانتحر.

انتبه على صورة شيخ معمم على الشاشة فسمعه يقول إن المحامي الشاب نحتسبه شهيدًا؛ لأنه قاوم الظلم حتى لو طريقة المقاومة غير سليمة.

سرح العم فاروق في بداية هذا اليوم العجيب ووفاة الشاب الذي كان يحبه لهدوئه وأدبه.

استرجع ذكرياته القليلة معه.

قطعت عليه زوجته ذكرياته وهي تسأله عن مصروف اليوم ولماذا هو أقل من المعتادـ فعاد يسبها ويسب الشاويش "خلف" الذي غالطه في حساب شطائر اليوم بحجة أنها تسع عشرة شطيرة فقط وليس عشرون.

كان واثقًا أن خلف "ابن كلب ياكل مال النبي" كما يصفه دائمًا". فهو لا يكتفي بنسبته المعتادة من ثمن الشطائر التي يحشوها بالمخدر ويبيعها للسجناء، ولكنه أيضًا يغالطه في عددها، لدرجة جعلت العم فاروق يفكر جديًّا في التوقف عن نشاطه هذا، رغم مكاسبه الكبيرة اليومية.

مرت زوجته برفق بجواره بعد أن لاحظت تعكر مزاجه فسمعته يكرر كلمة "أحا" ولم تفهم ما به.

تمت

دوى صوت إشارة البدء لينطلق مستدعيًّا كل خلاياه لتشارك، يتخطى بعض المتسابقين، ويتخطاه آخرون، يجب عليه أن يبلي بامتياز هذه المرة، لقد خطط أن يكون هذا سباقه الأخير، نعم سيعتزل، لم يصل يومًا إلى المركز الأول، ولا حتى الثاني، لم يكن له تاريخ يفخر به، اللهم إلا حصوله على ميداليات برونزية، هل اكتفى لهذا السبب؟ ربما ها هو أول حاجز يقترب، أيهما يعدو نحو الآخر، كان هذا التساؤل دومًا يحيره، كان يشعر أن الحواجز تعدو نحوه لتعطله، شأنها في ذلك شأن ظروف حياته، هو كمغناطيس حي، يجتذب العقبات، تخطى الحاجز الأول، لا تطرب أيا قلبي، استمر في الضخ، مازال أمامنا تسعة آخرون.

كان حواره الأخير مع مدربه عاصفًا، فقد كان المدرب الجديد يرفض وجوده لكبر سنه، ولعدم تميزه بالحصول على مركز أول، كان وجوده في الفريق يضمن لهم دومًا ميدالية برونزية، فقط إن حالفه الحظ واستمراره كان لعدم وجود بديل له في سباقه المفضل 3000 متر حواجز، لكن الحوار انتهى هذه المرة بإعلانه لمدربه أنه اكتفى سيعتزل، لا يريد أن يُضغط أكثر، فقد صارت ضغوط الحياة كافية عليه، طفلان وزوجة يحتاج أن يكون بجانبهم، ورياضة لم يكن دومًا راغبًا بها بقدر ماكانت غير راغبة فيه، أحلام تحولت إلى بخار متكثف على زجاج في ليلة باردة، يرسمها بإصبعه كطفل لاهٍ، لتسيل على الزجاج، وتزول نهائيًّا.

تخطى حاجزًا تلو الآخر، وهو يتذكر أحلامه، لم يكن يحلم بأشياء بعيدة المنال في حياته، لم يكن يطلب سوى استقرار و هدوء، حياة يحلم بها كثيرون، ويعتبرها كثيرون موتًا بطيئًا، لكن هذه أحلامه، حياة رتيبة لا يقطع رتابتها سوى رياضته التي يمارسها منذ الصغر، العدو، ولكن هل يحبها حقًا؟

أفاق من أفكاره على متسابق جديد يتخطاه قبل الحاجز التالي، هللت بعض الجماهير فرحة، فيما ابتسم هو بحنكة، فطريقة تخطي المتسابق له توحي بحماسه، وانعدام خبرته، فلا يكون التخطي قبل الحاجز بهذه الطريقة، صيحات الاستهجان تتعالى من تلك الجماهير بعدما تعثر متخطيه في الحاجز وسقط أرضًا، و نظر هو بثقة ممزوجة بحنين إلى المضمار أمامه، بقيت خمسة حواجز الآن، آخر خمسة حواجز سيتخطاها في حياته، حزن لم يعتاده، وتكرر السؤال مرة أخرى في رأسه، ستعتزل العدو، أخيرًا ستأخذ قرارك الذي تأخر كثيرًا، لماذا الحزن؟ ألا تذكر، هل كنت يومًا تحب رياضة العدو حقًا؟ تساءل لماذا استمرت ممارسته لها كل تلك الأعوام، ولماذا ضاق بها؟

الحاجز الخامس يقترب مكشرًا عن أنيابه، العدد يتناقص نحو نهاية علاقته بالرياضة التي أمضى بها عشرين عامًا، هل كنت أحبها حقًا؟ السؤال يترجرج في رأسه مع تمايلها في أثناء عدوه، وفاضت به الذكريات لتنسكب كقهوة نسيها صاحبها فوق الموقد.

(5)

استيقظ من نومه المزعوم على صوت أمه تستحثه للاستيقاظ، كان يجيد تمثيل تلك اللحظة، فرك عينيه وتمطى متثائبًا، طلب من أمه أن تتركه لينام، لكنها

أصرت ولجأت كالعادة لتهديداتها المستمرة بالحرمان من لعبته المفضلة، مصروفه اليومي، أو خروجه من المنزل يوم العطلة، قام من رقدته متذمرًا، وهو يحاول ابتكار عذر جديد

ملابسي الرياضية متسخة، يوجد بديل لها تفوح منه رائحة الزهور المميزة لمسحوق الغسيل.

الحذاء بات ضيقًا، قامت بفك الأربطة لتعطيه قدرًا من الاتساع.

زميلي لن يحضر التدريب اليوم، لا لقد اتصلت بأمه وسيأتي متأخرًا نفدت منه الأعذار.

ستجبره- كأي أم تحرص على صالح أبنائها- أن يذهب، فهي ترى أنه يبدأ مرحلة المراهقة في حياته، وكل البرامج التلفزيونية والكتب المتعلقة بالتربية تحث على وجوب وجود رياضة في حياته، لكن لماذا العدو؟، كانت دومًا ترد عليه بأن ذلك هو ترشيح المدربين وهم أكثر علمًا بالمناسب لك.

وهكذا، كان يذهب مجبرًا إلى النادي، ليلعب رياضة لم يختارها، من أجل تحقيق رغبة شخص آخر، كان يحرث في أرض غير ذات زرع وليست مملوكة له حتى، لكن السؤال كان مازال يتردد داخله، هل أحببت العدو حقًا؟

قفز ليتخطي الحاجز الخامس، بقيت أربعة، الأرقام، الأرقام تلهو بنا تكتب مستقبلنا وحاضرنا، وتعدو بنا أرقام السنوات لنترك ورائنا ماضينا، ماذا دهانا لتتحكم بنا الأرقام هكذا؟ ها هو الحاجز الرابع يقترب، وغاص بطلنا مع الأرقام.

(4)

توقف تمامًا عن الذهاب إلى لنادي بعد وفاة أمه، لم يكن هذا عنادًا منه أو تنفيذًا لما كان يريده بعد أن رحلت من كانت تجبره عليه، لكنه لم يكن يتخيل وجوده يعدو دون وجودها، لم يكن يتخيل ذهابه دون تجهيزها حقيبته، رغم أنه على أعتاب دخول الجامعة لكنها كانت دومًا تحرص على إعداد احتياجاته، ربما حتى لا تترك له فرصة للاعتذار.

لم يجادله والده كثيرًا، لكن مع تعثره في دراسته، بدأ معلمه يضغط عليه لدخول سباقات المدارس لعله يحظى بدرجات إضافية لممارسته الرياضة، وحصوله على ميداليات في بطولات، هاهي الأرقام تتحكم في حياتنا كالعادة، أخبر معلمه والده بهذا الاقتراح، لم يكن المعلم –للأسف- حريصًا على درجاته، لكنه كان يسعى وراء منفعته الشخصية من وجود رياضيين تحت إشرافه، ليضيف لسجله بعض الميداليات، لكنه أخبر أباه، وذاك بدوره كان حريصًا على درجات ابنه، وبدأ الضغط، هاهو يخطو نحو النادي، حذاؤه يحتضن أرض المضمار بشوق لا يشعر به هو، يعدو مرة أخرى، مجبرًا أيضًا، إلحاح والده و إصراره، مع خشيته من أن يخسر فعلًا درجات قد تساعده عاد، وخاض غمار سباقات عديدة، وحصل على مبتغاهما، والده، ومعلمه، ولكن ألم يسعد هو نفسه بعودته؟

مع تخطيه الحاجز الرابع، قفز رقم ثلاثة ليغشى عينيه، أغمض عينيه ثوان، ليلحق به متسابق ويتخطاه، رقم لعين، كان دومًا يذكره بتخطي الآخرين له،

الحاجز الثالث ليس ككلهم، الحاجز الوحيد الذي يهرب دومًا من أمامه، لأنه يعرف كم يكرهه بطلنا، يكره الرقم ثلاثة، لأنه يذكره بالكثير.

(3)

كانت حال والده الصحية تتدهور بسرعة، أخبره الأطباء أمس بموعد الجراحة التي سيخضع لها أبوه، ستكون بعد ثلاثة أشهر، كان يخشى انهياره قبل تلك المدة لكن الأطباء استبعدوا ذلك، كانت مشكلته في توفير ثمن الجراحة فلم يكن يملك سوى ثلاثة آلاف جنيه، وتبقى له ستة، أغلقت جميع الأبواب أمامه، وبدا له أن الوقت قد صار زميلًا له في رياضته السابقة التي توقف عنها منذ زمن، فالوقت يعدو بسرعة لكن القدر أبى إلا أن يساعده، التقى بمعلمه السابق، وبعد أن تجاذبا أطراف الحديث وخاضا في ذكريات عديدة، سأله معلمه عن النادي الذي يلعب له الآن، أخبره أنه توقف عن التدريب منذ فترة لانشغاله برعاية أبيه، لم يخبره أنه لم يرد الاستمرار، وأنه توقف بإرادته، فقط لينال الراحة.

أمسك معلمه بذراعه، ونظر في عينيه، وأخبره بأنه يريده معه، فقد تولى تدريب فريق جديد، وهو لم ير عداءً مثله، ابتسم له بهدوء وهو يجيبه برفض قاطع، لم يعد يريد أن يجري، يريد أن يرتاح، وقد أغلق هذه الصفحة من حياته تمامًا، نظر إليه معلمه بيأس، ودعه راحلًا بعد أن تبادلا أرقام الهواتف، لم تمضِ عدة أيام حتى كان يتصل بمعلمه، لم يسأله عن موعد التمرين، عن السباقات التي سيخوضها، سأله فقط عن الراتب الذي سيتقاضاه، لم يعد الوقت ملكه، تعاقد معهم، وتلقى ثلاثة آلاف أخرى، وضعهم في حسابه البنكي الضئيل الذي لا

يملك إلا توءمًا للرقم الذي أودعه، لم يتصور أنه سيسعد بالتدريب، لكنه كان يقضي على همومه بالعدو يدوسها بحذائه الرياضي في المضمار وبدأ يشعر بمشاعر متضاربة تجاه الرياضة التي عاش حياته مجبرًا عليها لكنه تناسى كل شيء وهو يرى أباه يعاني، والوقت يمر، الجراحة تقترب، الرصيد مازال يفتقد توءمًا ثالثًا، وبطولة الجمهورية تقترب كل التدريبات تعلن أنه سيفعلها، ويفوز بالمركز الأول، كانت أسوأ التوقعات تقول أنه سيحصد الفضية، كان يحلم بالنجاح متعجبًا، هل أحب العدو حقًا؟

خرج ليلة السباق من تدريبه مرهقًا، يجب أن يعود إلى منزله لينال قسطًا من الراحة، سيارة سوداء فاخرة تتوقف أمامه، السائق يهبط منها و يعدو نحوه فاتحًا الباب، فيما وقف هو ذاهلًا لا يفهم شيئًا، حتى تناول منه السائق حقيبته ليضعها بالسيارة، ويدفعه بلطف للجلوس داخلها.

رأى الحاجز الثالث يقترب فأسرعت الذكريات في عقله تسابقه العدو كشريط فيلم سينما صامتة، تلك الأفلام التي كانت تبدو كما لو أنها تمت زيادة سرعتها، رجل الأعمال الكبير والد أحد زملائه في النادي يستقبله في السيارة، مبلغًا من المال، يجب أن تخسر أمامه، يجب أن تتركه يتخطاك، ألف، ألفان، ثلاثة آلاف، إذن فلتجري يا أبي الجراحة بأمان، ولأحظى أنا بالمركز الثالث الذي أستحقه، فليست المراكز الأولى للفقراء، وتتساءلون، هل أحب تلك الرياضة؟

تخطى الحاجز الكريه، قفز وهو ينظر أمامه، ليجد أنه لا يسبقه سوى متسابق واحد، ويتبقى له حاجزان اثنان، وكاد أن يتوقف ليتنفس الصعداء أنه قد

تخطاه، كان الحاجز الثاني يلقاه مبتسمًا كعادته، أو ربما هو يظنه هكذا لأنه يأتي بعد الثالث الذي يكرهه، بادله ابتسامة عفوية.

(2)

روحان، قلبان، شخصان، مصير واحد، هكذا التقى بها، وتزوجا لتنجب له طفلين، ألم يذكر أنه يحب الرقم 2، إن الأرقام تكون لطيفة أحيانًا، لكنه قرر أن يعمل بوظيفتين ليستطيع مواجهة حواجز الحياة ولم تكفيانه، كان يخشى تلك الفترة، فقد اعتاد كلما توقف عن رياضته لفترة، واكتفى بالعدو في الحياة، أنها لا تتركه وتطل برأسها من جديد ويضطر مجبرًا أن يعود لها.

وهكذا كما في القصص الخيالية، أطلت برأسها مرة أخرى، تعاقُد من إحدى دول النفط، يريدونه أن يلعب باسم هذه الدولة، مقابل مبلغ خيالي، لم يدعِ الفضيلة والوطنية، وافق –مجبرًا– على الفور، حسنًا، لم يوافق على الفور، لكن ما عطله عن الموافقة هو رفض داخلي للاستسلام لها، لتلك الرياضة التي يفر منها بسرعة تفوق سرعة أدائه فيها، ولكنها تجذبه من يديه، من قدميه، من شعره، ولا يستطيع كل مرة إلا أن يعود لها صاغرًا، وهكذا انتقل إلى اللعب باسم هذه الدولة تحسنت أحواله المادية تحسنًا ملحوظًا، وتغير كل شيء، لكن لم تتغير داخله مشاعره المضطربة، هل يكرهها لأنه أجبر عليها منذ صغره، أم يحبها فهي السبب في كل ما صار إليه؟

الآن وهو يتخطى حاجزه المفضل، فوجئ بعدم وجود متسابقين أمامه فقط حاجز أخير، في سباقه الأخير، والمضمار يتسع للكون كله في تلك اللحظة، لم تغمره السعادة، ولم ينتابه الحزن، كان حقًا غارقًا في تساؤلات أنسته صياح

الجماهير وهي تهتف باسم بطلها الذي يقترب من الوصول إلى رقم 1 لأول مرة في آخر سباقاته.

(1)

ماذا أريد حقًا؟، ولماذا أعدو الآن؟ كنت طيلة حياتي، إما أعدو في المضمار، أو أعدو في الحياة هربًا من المضمار، إما أقفز تلك الحواجز العشرة، أو أتخطى موانع الحياة التي لا تنتهي، لماذا لم أتوقف عن الجري رغم أنني قد صرت أملك ثروة تغنيني؟، ولم أعد مجبرًا كما كنت في السابق، هل كنت أحلم بالحصول على المركز الأول؟ ومافائدة المركز الأول في رياضة لا أحبها، ولم أحبها، ولكن هل حقًا لم أحبها؟

الجماهير تزأر بجنون، وأفكاره تضطرب كبحر ثائر، أنفاسه الحارة تشعل حماس مدربه، ومشاعره تتضارب كفتية اختلفوا على نتيجة مباراة، اليأس يكاد ينال من المتسابق التالي، ويكاد يدمي قلبه الذي لم يعد يعرف ماذا يريد حقًا، نظر إلى لمضمار الخالي من المتسابقين أمامه، عيناه تقطعان المسافات لتريا نقطة النهاية، هل تكون هذه نهاية رحلته مع العدو؟ هل سينهيها بمركز أول سهر ليال يحلم به، لكن لماذا ينهيها؟ ربما لم يدرك هذا سابقًا، لكنه بات متيقنًا الآن، إنه يحب العدو يعشق الهواء وهو يلفح وجهه، لا تهمه المراكز، لن يتوقف، لم يكتفِ بعد، ربما لم يدرك هذا من قبل، الغشاوات أمام عينيه كانت توحي له أنه مجبر، لا، إنه لم يتوقف ولن يتوقف عن أن يجري، أخيرًا شعر بالراحة، أخيرًا أدرك مايريده حقًا، لكنه لم يدرك ما حدث بعدها فوجئ بالحاجز الأخير أمامه، حاول أن يقفز ليتخطاه لكنه لم يستعد جيدًا

صوت صراخ الجماهير،

صوت اصطدام الحاجز بالأرض،

صوت صياح مدربه،

صوت –أرعبه– صدر من ركبتيه، أعقبه ألم رهيب،

رقد على ظهره أرضًا، ليرى السماء أمامه، وظلال المتسابقين الآخرين تمر بجانبه.

نظر إلى طائرين يحلقان وسط السحب، وأدرك حينها أنه لم يعد بحاجة إلى الجري ليجني مالًا، أو درجات، أو يواجه مراهقته الفتية، لكنه بحاجة إلى الجري لأنه يحبه، لكنه أدرك أيضًا أنه لن يستطيع أن يجري مرة أخرى.

(تمت)

لا تقل شئنا.. علياء أسامة أيوب

انتصرت رائحة الحلوى على رائحة المطهرات التي تملأ أنفه ورئتيه في المستشفى وهنا، رفع رأسه تلقائيًّا ناحية نافذة مطبخه الصغيرة التي تسللت منها روائح السعادة، فألهته عن "كنكة البن" الراقدة في يأس فوق النار الهادئة.

حيَّره اتفاق الجيران الذين لم يعد يعرفهم على إعداد الحلوى في الوقت نفسه، وتساءل هل الاتفاق ضمني أم قرار مشترك، أم أنه موعد مقدس كمواقيت الصلاة؟

تنفس بعمق محاولًا فك التداخل الفريد بين روائح يذكرها جيدًا، ممم، هذا سكر يحترق على مهل قبل أن يتحول إلى كراميل، لا يفضله منذ صغره، وهذه شيكولاتة منصهرة يعرف إغراءها جيداً، كما يعرف رائحة الكعكة التي ذكرته بوالدته الراحلة، فتمنى قطعة منها، ربما تكسر مرار قهوته لكنها لن تفلح مع مرار حياته.

احتسى قهوته السادة وأمسك بهاتفه الذكي يتصفح فيسبوك، أضحكته "الكوميكس" المنتشرة حول انشغال السيدات في ليالِ الحظر بصنع المخبوزات، والحلويات، وبسكويت العشر دقائق، الذي لم يسمع عنه من قبل، ثم توالت المنشورات حتى رن المنبه يذكره بضرورة التحرك، بدل ملابسه وتأكد أن حقيبته الصغيرة لا ينقصها شيء.

يفضل السفر ليلًا خاصة إذا كان لا يتولى القيادة، أسند رأسه على زجاج النافذة، ووضع سماعات هاتفه في أذنيه واختار أغنية الأطلال للست كما كان

يسميها والده، قصيدة طويلة تنسيه طول الطريق وتناسب الموقف، لم يتبق من حياته سوى الأطلال، وربما يصبح العالم خلال أسابيع مجرد أطلال.

توقفت السيارة في كمين شرطة لمراقبة الحظر، أخرج السائق التصاريح وقدم هو وزملاؤه كارنيهات نقابة الأطباء، حياهم الضابط وتمنى لهم التوفيق والسلامة، ابتسم في امتنان ممزوج بالسخرية السلامة! آخر ما يتمنى في مهمته الانتحارية التي اختارها بإرادته حين تقدم بطلب للعمل في مستشفى العزل بإحدى المحافظات، لا شيء خلفه يبكي عليه أو يتمنى العودة لأجله، ربما تلك فرصته المثالية للانتحار برتبة شهيد، ميتة لا تُغضب الله سيموت وهو يؤدي واجبه وينقذ عشرات المرضى.

تصفح الفيسبوك مجددًا، يمر الوقت بمتابعة كوميكس ساخرة، ودعوات للبقاء في المنزل وطرق للتغلب على الملل، وأخبار عن إصابات ووفيات وأوضاع متدهورة في أوروبا وأمريكا، ودعاء لله عله يرفع الغمة وتقدير للعاملين في القطاع الصحي، "الجيش الأبيض" ابتسم للكلمة وتذكر والده ضابط الجيش ومحاولاته لدفعه للالتحاق بالكلية الحربية أو الالتحاق بالجيش كضابط طبيب، تحققت أمنيتك يا أبي صرت جنديًّا في جيش أبيض يخوض معركة مع عدو مجهول.

أغمض عينيه وقرأ الفاتحة على روح والديه للمرة الثالثة هذه الليلة، ثم فتحهما على دقة زائدة من قلبه يعرفها جيدًا، كلما رأى صورتها أو قرأ اسمها.

يسرا، الخيبة الأبرز في سجل خيباته الحافل لا يمكنه أن يلقي باللوم عليها أو على الزمن أو النصيب، لا مذنب سواه في تلك القصة المأساوية التي انتهت

بفراق متهور لا يندم في حياته إلا عليه، متى رفعته من قائمة الحظر؟ لا يهم المهم أنها سمحت له بمتابعتها من جديد فأعادته صورة حسابها لأيام حبهما الأولى وأحلام قديمة ما تحقق منها شيء.

قرأ منشورها المخصص للدعاء للأطباء أرفقته بجملة «ربنا يحمي كل طبيب» هل تشمله بدعائها؟ ابتسم لمجرد الاحتمال، تردد قبل أن يضع "لايك" خجولة أتبعها بكلمة شكر وحيدة لم ينتظر بعدها كثيرًا قبل أن ترد بـ"بلايك" على تعليقه.

اتسعت ابتسامته ربما ضحك وأم كلثوم تصدح في أذنيه وضحكنا ضحك طفلين معًا كانا كطفلين ضحكا وأحبا وبنيا من الخيال حولهما ولأنها تسبقه دومًا بخطوة تلقي رسالتها عفوية ومندفعة كما كانت قالت ببساطة إزيك؟ لحقتها رسالات أخرى:

ـ أخبارك ايه في الظروف دي؟ بتشتغل في مستشفى ايه دلوقتي؟ خلي بالك من نفسك.

لم يجب أيًا من أسئلتها لن يرد بإجابات مستهلكة تقليدية تخلى عن تحفظه، واندفع مثلها قال ما يجب أن يقول:

ـ يسرا أنا لسه بحبك.

استلمت الرسالة قرأتها وردت في الثانية نفسها وأنا كمان.

ولأنها الدنيا كما نعرفها نبهته الست أن الفجر مطل كالحريق، وأن السيارة وصلت وجهتها، فكتب لها أنا رايح استلم شغلي في مستشفى للعزل، صمت رهيب دقائق طويلة مرت قبل أن تجيب سأنتظرك وستعود، وصوت أم كلثوم يلازمه، لا تقل شئنا.

صورته.. بسمة توفيق

مثل كل يوم منذ ثلاثين عامًا، استيقظت لترتب كل أشيائه، تنقل ملابسه الملقاة بلا ترتيب من السرير إلى المشجب، تعطر الغرفة ثم تبدأ جولة الغسيل والكي، ألف مرة قالت له لا تنس ماكينة الحلاقة على الحوض ولا فائدة مر الوقت سريعًا، الساعة تدق الثانية عشرة ظهرًا باقي دقيقة واحدة وتسمع جرس الباب ها هو يرن وينفتح الباب كاشفًا عن وجه الصبي الجديد القادم من محل بيع الزهور، يعرف أنه يثير أعصابها بفوضاه فيعتذر بباقة زهور يومية مكتوب عليها بخطه: أحبك، كالمسحورة تتحرك مبتسمة في أرجاء المنزل، ترتب، تنظف تغني أغنيته المفضلة تعيش له وبه فقط، تنظف إطارات الصور عجيب أمره ليس له صورة واحدة في البيت، لا يحب التصوير أبدًا ليس معها سوى صورة الزفاف، وصورة أخرى التقطت مصادفة في النادي وهو يلعب الشطرنج مع ولده منذ شهور، عقارب الساعة تتسابق نحو موعد وصوله، وفي الإشارة القريبة من البيت تقف سيارة ابنها في الزحام وإلي جانبه زوجته تتشح بالسواد وفي المقعد الخلفي تجلس الخادمة حاملة كيس ورقي كبير يغلف شيئًا غاليًّا ثقيل الوزن على ما يبدو، وصوت القرآن يتصاعد من الراديو، وفي المنزل الأم تطبخ ما طلبه الأب الغائب قبل رحيله يحب سمك الصيادية، وهاهي تطهو من أجله كما تركت عملها في الماضي من أجله أيضًا الراديو يصدح بأغنية يحبها يفكر في الاتصال به، يرن تليفونه بلا فائدة، يرن بالأغنية نفسها، ويرن معه حرس الباب للمرة الثانية، تنظر إلى الساعة بانزعاج هذا ليس موعده، لماذا

أتى مبكرًا وهتفت وهي تنطلق نحو الباب: ليس هذا من عادة حبيبي حتى انفتح الباب ورأت ابنها وزوجته وحفيدها مع الخادمة وقعت مغشيًّا عليها.

وعلى سريرها، التف حولها الجميع، وتردد صدي كلمات ابنها أبي توفي منذ خمسة أشهر يا أمي، ونظرت إليه بضياع وحيرة وإنكار وداخلها يصرخ لا حبيبي لم يمت وتجمدت في عينيها دمعة، وهي تهمس إليهم بضعف بعد تناولها الدواء: صدقوني لم يمت، إنه معي داخلي وغفت، ثم استيقظت على صوت هاتفها المحمول يهتز بنغمة أغنيته حاملًا اسم "حبيبي"، ارتجفت الخادمة وهي تحمله إليها وابتسمت هي وضُبِطَ الحفيد الصغير، وهو يعبث بتليفون جده الراحل و لبت الحبيبة نداء حبيبها وغفت على سريرها من جديد ذاهبة إليه بلا عودة بعد أن وضعوا صورته مكبرة في بيته لأول مرة بشريط أسود!

(تمت)

فهرس